

اقرأ

محمود كامل

تحرير وادي النيل

ديسمبر سنة ١٩٥١

دار المعارف بمصر

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



38534019083413

تمت اعادة رفع وتحميل الكتاب
غرة شوال ١٤٤٦ هـ

د. ابراهيم بن حسن الطويل ال ابراهيم العباسي

تحرير وادي النيل

ديسمبر سنة ١٩٥١

الإعلانات يتفق بشأنها مع

شركة إعلانات الشرق الأوسط

تليفون ٧١١٧ القاهرة

٣٣ شارع عبد الحالق ثروت

D.T
108.6
K3
1951
C.2

محمود كميل

تحرير وادي النيل

١٠٧

اقرأ

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

B12913285

i 17506906

اقراً ١٠٧ - ديسمبر سنة ١٩٥١



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

كلمة المؤلف

يقول أميل لودفيج في كتابه « النيل » إن مصر هي القطر الوحيد على سطح الأرض الذي يعيش فيه كل مصرى دون أن يختفى منظر النهر من أمام عينيه وأن الدول المتعاقبة على حكم مصر أتت فاستخدمت النهر ثم ذهبت ولكن النهر والد تلك الأرض الطيبة خلد على مر الدهر .

ويقول ونستون تشرشل في كتابه « حرب النهر » إنه إذا نظر القارئ إلى خريطة النيل فإنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الدهشة للشبه الشديد بين النيل وشجرة النخيل ففي الجزء الأعلى تجد الخصرة وأرض الدلتا الخصبة وهي تنتشر كفروع الشجرة ذات الأوراق الخضرة وقد تلاحظ أن جزع الشجرة يتعرج تعرجاً طفيفاً لأن النيل ينساب متشياً وسط الصحراء . وفي جنوب الخرطوم نجد الشبه تاماً بين مجرى النيل وشجرة النخيل فإن جذوع هذه الشجرة تبدو متسربة في أعماق جنوب السودان . ولا أستطيع أن أتخيل صورة أفضل من هذه الصورة لإبراز العلاقة الدقيقة

الوثيقة بين مصر والأقاليم الجنوبية . فالماء — وهو حياة الدلتا —
يأتى من السودان وينساب فى مجرى النيل كما ينساب عصير
الحياة فى جزع الشجرة صاعداً إلى فروعها منتجاً خير
الفاكهة . وفائدة مصر من هذه الصلة بديهية لا تحتمل
مناقشة ولكن هذه الفائدة لا تعود على مصر وحدها فإن
الصلة بين مصر والسودان تعم مزاياها الاثنين معاً وهما يتبادلانها
وإذا كان السودان جزءاً لا ينفصل عن مصر من الوجهة
الطبيعية والجغرافية فإن صلة مصر بالسودان ضرورية ضرورة
حتمية لتقدم ورفاهية السودان . وماذا تكون فائدة الجذور
والأرض الخصبة إذا انتزع الجزع عنوة وهو الذى بدونه
لا يمكن أن يصل عصير الحياة إلى فروع الشجرة المورقة
فى الهواء الأعلى ؟ .

ومن الأخطاء الشائعة أن وادى النيل قاصر على مصر
والسودان . فالواقع أن هذا الوادى يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك
إذ أن منابع النيل الأبيض — وسنرى أن هذا النيل يحمل
أسماء مختلفة فى سيره من الجنوب إلى الشمال — موزعة فى
ثلاثة أقطار مزقتها الاستعمار الأوروبى وفرض حدوداً جغرافية
بين كل منها . وجعل لكل منها شكلاً سياسياً خاصاً من أشكال
الحكم . وهذه الأقطار هى أوغندا الموضوعة تحت حماية بريطانيا

وتنجانيقا المشمولة بوصاية بريطانيا منتدبة من هيئة الأمم المتحدة . وكينيا التي لا تزال تعد مستعمرة بريطانية .

فجبال رونزورى Ruwenzori — التي يسميها النيليون من أهالى المنطقة جبال القمر — التي تنساب منها مياه الأمطار إلى بحيرة فيكتوريا تقع فى أوغندا التي تشغل بحيراتها سدس مجموع مساحتها . ومن هذه البحيرات بحيرة إدوارد وبحيرة جورج وبحيرة ألبرت التي تحمل معظم المياه الهابطة من جبال رونزورى إلى النيل .

وتضم أوغندا الوديان التي تتجمع فيها مياه الجزء الأول من النيل الذى يسمى باسم نيل فيكتوريا . وبحيرتى إبراهيم « كيوجا » وكيوانيا اللتين تعترضان طريق نيل فيكتوريا بين بحيرتى فيكتوريا وألبرت . كما تضم قناة كازينجا التي تصل بين بحيرتى إدوارد وجورج . والجزء الأخير من نهر سمليكى الذى يغذى بحيرة ألبرت — وسنرى فيما بعد أنه اكتشف باسم مصرفى عهد إسماعيل — ونهر كافو الذى يغذى بحيرة إبراهيم وأخيراً فإنها تضم بحيرة سالسبورى التي تغذى نيل فيكتوريا بمياه الأمطار التي تهبط على جبل الجون . ونهر أسوا الذى يغذى النيل على مقربة من الابراهيمية « نيمولى » .

ومن المجمع عليه أن أوغندا — الواقعة تحت الحماية

البريطانية - تعد من الوجهة الجغرافية بمجموع مساحتها
 حوض النيل الأعلى فنيل فيكتوريا - وهو الاسم الذى يطلق
 على الجزء الأول من النيل والذى يبلغ طوله ثلاثمائة ميل -
 يبدأ من نقطة فى أقصى شمال بحيرة فيكتوريا عند جينچا
 وتعرضه هناك شلالات ريون فى أرض أوغندا . ثم تعرضه
 بعد ذلك شلالات أوين فى هذه الأرض نفسها فإذا مر
 ببحيرة ابراهم «كيوچا» - وسرى فيما بعد أنها بحيرة اكتشفت
 باسم مصر وأطلق عليها بحيرة إبراهيم تيمناً باسم والد عاهل مصر
 عند اكتشافها - انساب بعد ذلك إلى بحيرة كيوانيا
 ثم إلى بحيرة ألبرت - وسرى فيما بعد أن أول باخرة مخرت
 مياهها كانت باخرة مصرية فى عهد إسماعيل - حيث
 تعرضه فى أقصى شمالها شلالات ميرشيسون ومن هناك يحمل
 الجزء الثانى من النيل اسمه الثانى نيل ألبرت الذى يبلغ طوله مائة
 وخمسين ميلاً إلى الإبراهيمية «نيمولى» - وسرى فيما بعد أنها نقطة
 على النيل تسمى الإبراهيمية تيمناً باسم والد عاهل مصر الذى
 وصل المصريون فى عهده إليها وأن الاستعمار شاء بعد ذلك أن
 يعيد إطلاق اسمها القديم عليها - وأخيراً فإن نهر كاجيرا
 الذى كان يسمى «النيل» والذى يعد واحداً من نحو
 خمسة عشر نهراً تغذى النيل عند بحيرة فيكتوريا بمياه الأمطار

الهابطة من جبل الجون يبلغ طوله أربعمائة وخمسين ميلا ويمر في أراضي أوغندا ويسميه النيليون المقيمون في هذه المنطقة «أم نهر چنچا» باعتبار أنه يغذى بمائه النهر العظيم الذى يخرج من بحيرة فيكتوريا عند چنچا .

وفي كينيا - وهى مستعمرة بريطانية - يقع الحوض الذى يضم النهرات التى تشترك فى تغذية بحيرة فيكتوريا وأهم هذه النهرات «نوزيا» و «يالا» و «مارا» .

وفي «تنجانيقا» الموضوعة تحت وصاية الأمم المتحدة التى انتدبت بريطانيا لإدارتها - تقع بحيرة تنجانيقا وهى أطول بحيرة عذبة المياه فى العالم إذ يبلغ طولها ستمائة وأربعين كيلومتراً والتى تغذى بعض منابع النيل كما تقع النهرات التى تشترك فى تغذية بحيرة فيكتوريا وأهمها «مورى» و «مارا» - الذى رأينا أنه يمر بأرض كينيا - و «كاجيرا» - الذى رأينا أنه ينتهى فى أوغندا .

وأخيراً يقع الجزء الجنوبى من بحيرة فيكتوريا وخليج أمين الذى يحمل اسم آخر حاكم من قبل مصر على المديرية الاستوائية المصرية .

* * *

من ذلك كله يتضح أن حوض النيل الأعلى بأجمعه

— أى بجميع الجبال والبحيرات والأنهار والنهيرات التى تتجمع فيها مياه النيل الرئيسى — إنما تقع فى أراض شاء الاستعمار الأوروبي أن يفصلها عن مصر رغم ما سوف يتبين فى هذا البحث العلمى من قيام وحدة جغرافيه وتاريخية و « جنسية » — اتنولوجيك — ولغوية .

وسوف نبحث فى هذا الكتاب مدى هذه الوحدة بحثاً علمياً خالصاً ومدى ما اجترأ عليه الاستعمار الأوروبى فى وادى النيل لتمزيق هذه الوحدة ومدى الجهود التى بذلت لتحرير وادى النيل من هذا الاستعمار مؤمنين بأن واجب مصر والسودان — بعد إلغاء معاهدة التحالف والصداقة بين مصر وبريطانيا التى وقعت عام ١٩٣٦ واتفاقى الحكم الثنائى اللذين وقعا عام ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان — أن تتجه أنظارهما إلى هذا الوادى جنوباً وأن تشتركا اشتراكاً إيجابياً مثمرًا فى إتمام الخطوات التى بدأت لتحرير ما لم يتم تحريره من أراضى هذا الوادى .

ولكى نتبين أهمية هذا البحث يحسن أن نذكر أن مساحة الأقطار التى يمر فيها النيل من منبعه إلى مصبه تبلغ خمسة ملايين ونصف المليون من الكيلومترات المربعة تشغل مصر والسودان نحو ثلثها إذ تبلغ مساحتهما ثلاثة ملايين وستمائة

ألف كيلومتراً مربعاً بينما تبلغ مساحة أوغندة وكينيا وتنزانيا
 مليوناً وسبعمائة وثمانية وخمسين ألفاً . فإذا تذكرنا أن مساحة
 الجزر البريطانية — إنجلترا وويلز واسكتلندا وإيرلندا —
 هي مائتان واثنان وأربعون ألفاً من الكيلومترات المربعة لعلمنا
 أن الأقطار الواقعة على جانبي النيل تبلغ مساحتها ثلاثة وعشرين
 ضعف مساحة الجزر البريطانية ؛ كما أن مساحة هذه الأقطار
 النيلية تبلغ أكثر من نصف مجموع مساحة أوروبا التي
 تفرض استعمارها العاقى على أفريقيا إذ أن مساحة أوروبا
 لا تزيد عن عشرة ملايين من الكيلومترات المربعة .

ولكى أختم هذه المقدمة يجب أن أضيف أن هذه الأقطار
 النيلية تبلغ مساحتها أكثر من سدس مجموع مساحة إفريقيا
 كما أن هذه الأقطار تضم نحو ثلث مجموع سكان هذه
 القارة الأفريقية.

محمود كامل

الحامى

الشعوب النيلية

من ظواهر الجغرافية الإنسانية فى القارة الإفريقية أنه لا توجد فى قلبها حواجز طبيعية تفصل بين شعوبها وانعدام هذه الحواجز هو الذى ساعد على هجرة القبائل الإفريقية من مكان إلى آخر كما ساعد على امتزاج هذه القبائل وعلى التشابه فى ثقافتها . كما أنه لا توجد أنواع متباينة من الأجناس المختلفة التى تكون سكان هذه القارة الذين ترتفع بينهم نسبة الأجناس الرحالة ارتفاعاً عظيماً^(١).

وأجناس أفريقيا الرئيسية هى :

١ - سكان الغابات والمناطق غير المطروقة المعروفون باسم

« البوشمان » Bushman .

٢ - الزنوج الذين يسميهم التعبير الأتولوجى الأوروبى

Negro .

٣ - الحاميون الذين يقطنون شرق القارة .

(١) The Encyclopaedia Britannica الطبعة الحادية عشر - كلمة

Africa عند الكلام على الأجناس الإفريقية Ethnology

٤ - الليبيون .

٥ - الساميون .

والقسم الأول من هذه الأجناس يتميز بقصر قامته وسمرة بشرته سمرة مائلة إلى الاصفرار . وكان « البوشمان » يقطنون في بادئ الأمر في جنوب إفريقيا فاضطرتهم قبائل الهوتنتوت Hottentots الرعاة و « البانتو » Bantu المزارعون وهي قبائل تقطن جنوب غرب أفريقيا إلى الهجرة فوصلوا إلى بحيرة تنجانيقا أى إلى منطقة منابع النيل . ولا شك أن أوجه الشبه كبيرة بين « البوشمان » وبين « الهوتنتوت » و « البانتو » وهي تبدو في قصر القامة والبشرة السمراء المصفرة .

أما القسم الثانى من الإفريقيين - أى الزوج - فيسكنون باقى وسط أفريقيا بما فيه وادى النيل الأعلى وهذه المنطقة من وسط أفريقيا تسكنها أيضاً القبائل الرحالة التى تكونت من امتزاج الليبيين فى شمال أفريقيا بالعرب الساميين وبالهاميين فى الشمال الشرقى من القارة .

والقسم الثالث من الأجناس الإفريقية - الهاميون - يسكنون الصومال والحبشة ولو أن الأحباش قد امتزجوا بالساميين فتكون من هذا الامتزاج جنس سامى حامى .

والقسم الرابع وهم - الليبيون المعروفون بالبربر - يسكنون شمال

أفريقيا في الجزائر ومراكش وهم شعب أبيض تأثر فيما بعد
بالتابع العربي .

والقسم الخامس — الساميون — يسكنون شمال شرق أفريقيا
أى مصر وشمال السودان وما جاورهما .

ومن الثابت أن مصر — دون سائر دول العالم التى تعتبر
متمدنية فى العصر الحالى — قد نشأت فيها مدنية أصيلة قبل
أن تنشأ فى غيرها. ونمت تلك المدنية وازدهرت وانتشرت منها
فى أرجاء العالم الآخر التى كان آدميوها يتحركون فى غاباتها
إلى جانب الحيوانات وهم على الفطرة . هذا أمر أجمع عليه
كافة المؤرخين الذين توافروا على دراسة تاريخ مصر القديم
فلا شك أن المصريين شعب له كيانه الخاص ومقوماته
« الأثنولوجية » المميزة له دون سائر الشعوب الأخرى التى
مرت مثله فى عصور ما قبل التاريخ . أى العصور السابقة
لاستخدام الإنسان للمعادن . وهى عصر الحجر غير المصقول .
وعصر الحجر المصقول . وعصر الانتقال من استخدام الحجر
إلى استخدام المعدن . والشعبان اللذان مرا مثله — ومعه — فى تلك
العصور هما الشعب الكلدانى الذى كان يقطن وادى دجلة
والفرات . والشعب الذى كان يقطن وادى نهر الهندوس فى
الهند . وقد دلت الآثار التى وجدت فى مصر من العصر

الحجرى على فساد الزعم بأن الحضارة المصرية التى نشأت فى العصر الحجرى هى حضارة كلدانية انتقلت إلى مصر بغزو الكلدانيين لها . كما دلت تلك الآثار على أن المصريين قد انتقلوا من العصر الحجرى - أى عصر ما قبل التاريخ - إلى العصر المعدنى قبل غيرهم من شعوب العالم أجمع .

ومن الثابت أن أول مدينتين ازدهرتا فى التاريخ هما مدينتا المصريين والكلدانيين ولكن مصر تحتل مكان الصدارة بالنسبة لقدم المدنية المصرية وبالنسبة لعدد الآثار التى خلفتها ولجمالها . ففى مصر تبدو شخصية المصرى منذ أقدم عصور التاريخ . ويمكن للمؤرخ أن يتبع تطور جسمه وروحه وآثاره الاجتماعية والسياسية والعقلية والفنية تطوراً متسقاً متسلسلاً بدون انقطاع إلى يومنا . وهى ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ أى مدنية أخرى . ولذلك يجب أن تبدأ فى مصر دراسة أصول المدنية التاريخية فى العالم .

والراجح علمياً أن الإنسان قد ظهر فى مصر وفى الأقطار المجاورة لها من شمال أفريقيا قبل أن يظهر فى غيرها من بقاع العالم . ففى الوقت الذى كان الثلج يغمر أوروبا كانت الصحراء الكبرى الحالية بقاءً تغمرها المياه وتغطيها الحشائش وتجوب فيها الحيوانات . وقد وجدت حول الجزائر وعلى مقربة





من تونس آثار عرف عمرها من عدد طبقات الأرض التي تراكت فوقها وهذه الآثار عبارة عن أدوات وأسلحة لشعب من الصيادين الرحل . كما أن صور الحيوانات التي كانوا يصطادونها وجدت محفورة على الجدران في بعض جهات السودان . وقد وصل هؤلاء الصيادون إلى حافة المنخفض الذي كان النيل يجاهد لكي يحفر لنفسه ممراً فيه . وفي العصر الثلجي الأول لأوروبا تمكن النيل من أن يجد منفذاً بين أحجار الجرانيت في النوبة فوصلت مياهه إلى البحر الأبيض المتوسط . وفي العصر الثلجي الثاني لأوروبا اجتذب وادي النيل بمائه ونباتاته وحيواناته صيادي المناطق المجاورة ^(١) ومن الثابت أيضاً أن المصريين قد انتقلوا فجأة من العصر الحجري الأول Palæolithic إلى العصر الحجري المذهب Neolithic الذي يحسن أن يسمى العصر النحاسي Chalcolithic لأن النحاس كان قد بدأ استعماله أثناءه فلم يعثر على آثار تدل على أن المصريين قد تدرجوا مع العصر الحجري بدرجاته المختلفة كما تدرجت شعوب أخرى وقد اتضح من الحفائر العميقة في دلتا النيل وجود أواني خزفية وطوب مصنوع كما وجدت جمجمة في دمياط على عمق عشرين أو ثلاثين متراً .

وبناء على التقديرات المعقولة يكون أولئك البناؤون قد عاشوا هناك منذ ستة عشر ألف عام^(١) ومن المحتمل أنهم الشعب الذى عاش بين عصر الصحراء الحجرى والعصر النحاسى الذى جاء بعده وهو العصر الذى يعود تاريخه إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد^(٢).

ومن الثابت أيضاً أنه لا تهجد آثار تدل على وجود الإنسان فى سوريا أو بين نهري دجلة والفرات تعود إلى ما قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وفى ذلك التاريخ كان المصريون قد دخلوا باب تاريخهم الخاص وثبتت أقدامهم فيه . ولذلك فمن الحكمة أن نعزو تقدم المصريين الأوائل إلى الظروف الاستثنائية التى أتاحها لهم وادى النيل ولا يوجد دليل على أن ذلك التقدم يعود الفضل فيه إلى أجانب عن أولئك المصريين كانوا أكثر منهم تقدماً أو رقياً^(٣).

ولعل أحسن رد على ما زعمه بعضهم من أن أوجه الشبه التى بين آثار الكلدانيين التى من العصر الحجرى وآثار

(١) James Breasted : The Origins of Civilisation (reprinted from the Scientific Monthly) November 1919 p. 307.

(٢) J. De Morgan : Recherches sur les origines de l'Egypte p. 100.

(٣) موريه ودينى المرجع السابق ص ١٢٢

المصريين التي من نفس العصر تدل على أن مصر قد اقتبست من حضارة الكلدانيين هو ما ذكره أحد كبار الثقافات في التاريخ المصرى القديم من أن جميع المكتشفات والابتكارات الهامة مصرية صميمية وأنه ليس هناك ما ينبئ أن مصر مدينة لآسيا بتلك الحضارة بل إن من الممكن تفسير ذلك الشبه بين حضارة مصر وحضارة الكلدانيين بأنه حدث في وقت انتقال الحضارة المصرية إلى الخارج^(١).

وقد انتهى العصر الحجري في مصر - وكان لا يزال مستمراً في غيرها كما قلنا - حوالى عام ٣٢٠٠ قبل ميلاد المسيح وبدأ تاريخ الأسر المصرية التي توالى على حكم مصر. ويجمع العلماء في علم الأجناس على أن الشعوب الحامية التي كانت تسكن شمال القارة الإفريقية حول وادى النيل هي التي تولت مهمة التوسع في قلب القارة في عصر ما قبل التاريخ وهذه الشعوب الحامية أرست أسس تقدم مصر تحت ظل الحضارة الزراعية وهي تنتمى إلى مجموعة « جنسية » تسكن شمال شرق القارة امتازت بروح تقدمية وقد انتقل هذا الشعب من شمال شرق أفريقيا إلى شرقها في عصر ما قبل التاريخ ولم يتوقف هناك إذ أنه توغل في منطقة خط الاستواء وتدل

وسائل الزراعة التي استخدمت لدى السودانيين ثم لدى «البانتو» - التي سبق أن ذكرنا أنها قبائل امتازت باحترافها الزراعة في أفريقيا الاستوائية - على مدى الأثر الذي تركه خاصة الشعب الحامي أو الذي تأثر بالحضارة الحامية في أفريقيا الشرقية وأفريقيا الوسطى . وعلى مدى ما تركته هذه الهجرة الحامية القادمة من الشمال عبر الصحراء في شعوب أفريقيا الوسطى .

وقد لوحظ في كل أفريقيا الشرقية أن الأجناس الحامية قد طبعت منذ عصر ما قبل التاريخ حضارتها كما تثبت ذلك الحفائر في أراضي كينيا وتنجانيقا^(١) .

وثابت أيضاً أن قبائل «البوشمان» - التي سبق أن ذكرنا أنها القبائل الرحل التي تعيش في الغابات والتي هاجرت من جنوب غرب أفريقيا إلى منطقة بحيرة تنجانيقا - وقبائل «البيجمي» Pygmies وهي قبائل الأقزام التي تعيش في منطقة خط الاستواء قد استخدمت منذ عصر ما قبل التاريخ القوس ذا السهم المسمم في صيد الحيوانات ولم يحدث ذلك مصادفة فإن الباحثين في علم الأجناس يقررون أن

P.Laviosa Zambotti : Les Origines et La Diffusion de (١)
la Civilisation P. 50, 120.

استخدام القوس ذى السهم المسمم كان من دأب الشعوب
الراقية فى العصر الحجرى الأول وأن أفريقيا قد استخدمت
هذه الوسيلة من وسائل الصيد فى العصر الحجرى المهذب
« نيوليتيك » وأن الشعوب الحامية التى اتجهت من شمال القارة
إلى شرقها ووسطها سعيًا وراء التوسع قد نقلت معها هذه الوسيلة
وأنه لا تزال هناك قبائل من صيادين حاميين تعيش فى
كينيا وفى تنجانيقا تستخدم إلى اليوم القوس ذا السهم المسمم
وأن من الراجح أنها فى ذلك تتابع الوسيلة التى نقلتها القبائل
الحامية القادمة من الشمال إلى الجنوب (١).

ولم يقتصر أثر الحضارة الحامية التى انتقلت من شمال
أفريقيا إلى وسطها أو بتعبير أدق من دلتا النيل إلى منطقة
منابع هذا النيل على هذه الوسيلة البدائية من وسائل الصيد بل
أنه تعداه إلى مظاهر أخرى ووسائل أخرى من وسائل الصيد
التي كانت تستخدمها مصر قبل الأسرة الملكية الأولى . وأن
زراعة الخوص اللازم لصناعة المقاطف والتي لا تزال سارية
فى كينيا وأوغندا وتنجانيقا أدخلت إلى هذه الأقطار الواقعة
حول حوض النيل الأعلى بواسطة الشعوب الحامية المهاجرة

من الشمال فى ذلك العصر الحجرى (١) .
ولم يقتصر بحث العلماء فى علم الأجناس على هذه الناحية
من تقرير أثر الشعوب التى كانت تعيش فى شمال وادى النيل
على الشعوب التى كانت تعيش فى جنوب هذا الوادى
بل إن المتخصصين فى علم اللغات من هؤلاء العلماء قد قطعوا
بوجود نوع من الوحدة بين لغات الشعوب النيلية رغم ما يبدو
من اختلاف بينها فقد ذهب العلامة الألمانى راينيش Reinisch
إلى أن هناك وحدة لغوية للقارة الإفريقية وأن اللغات الحامية
قد تركت طابعها على لغات وسط أفريقيا . وأن اللغة النوبية
إنما هى أقرب إلى هذه اللغات الحامية بما فيها اللغة المصرية
القديمة منها إلى أى لغة أخرى . وذهب العلامة الألمانى «ماينهوف»
Meinhof إلى أن لغات قبائل «البانتو» إنما هى ثمرة نوع
من المزج بين اللغات السودانية واللغات الحامية ولكنه عارض
راينيش فى أن اللغة النوبية لغة حامية وأقره على ذلك العلامة
الإيطالى آزيريللى Assirelli ولكنه بعد أن ذكر أن اللغة
النوبية تفتقر عن اللغة الحامية القديمة وعن لغة «البانتو»
لم يستطع إلا أن يقر بأنه رغم هذا كله فإن هناك من أوجه الشبه
فى الأفعال وتكوين الكلمات ما يبرر للعلماء أن يقرروا بوجود

هذه الصلة بين اللغة النوبية واللغة الحامية ولغة « البانتو » (١).
وقد آمن المصريون منذ فجر التاريخ بأن وحدتهم مع
الشعوب النيلية وحدة تحتمها اعتبارات الجوار والمصلحة
المشتركة. ولا داعي في هذا البحث لسوق العديد من الأدلة
التاريخية. ويكفي أن مصر قد اتحدت مع بلاد النوبة في عصر
الأسرة الأولى أى عصر ملوك طيبة عام ٣١٩٧ قبل الميلاد .
وأول حوادث تاريخية تسجل الامتراج بين المصريين
والسودانيين هى علاقات التجارة التى أنشأتها مصر عام ٢٦٠٠
قبل الميلاد مع دنقلة والبعثة التى أرسلتها مصر إلى دارفور
ولم يترك الشعب النيل الذى كان يقطن السودان فى ذلك
الوقت تاريخاً مكتوباً ولكن أهم ما خلفه من أثر وجد فى
ناحية فاراس على مقربة من وادى حلفا .

وفى الأسرة الوسطى أى فى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد وصل
المصريون إلى الشلال الرابع وأنشأوا فى « كرما » مقراً للحاكم
لا تزال آثاره باقية إلى الآن . كما أنشأوا على جانبي النيل سلسلة
من الحصون لحماية المواصلات مع مصر. وظلت هذه الوحدة
قائمة ثلاثمائة عام والأرجح أن انقطاع هذه الصلة مؤقتاً بعد
ذلك لم يكن إلا بسبب غزوة الهكسوس لمصر فى عام ١٧٠٠

قبل الميلاد لأن المصريين لم يكدوا يتخلصون من حكم الهكسوس في عام ١٥٨٠ قبل الميلاد حتى استعادوا امتزاجهم بالسودان في عهد «احمس» الأول الذي بنى معبد «بوهن» على مقربة من وادى حلفا كما بنيت بعد ذلك عدة معابد بعضها وصل جنوباً إلى جبل بركال^(١).

وقد ظلت مصر تحمل رسالة الوحدة بينها وبين الأقاليم الجنوبية في عهد الدولة القديمة التي انتهت عام ١٤٢٣ قبل الميلاد^(٢). وعلى المعبد الكبير في الكرنك توجد نقوش تدل على أن بعثات تحتمس الأول (١٦٦٧ ق.م.) قد وصلت إلى منطقة البحيرات التي ينبع فيها النيل^(٣) كما ثبت أن تحتمس الأول أحد ملوك هذه الدولة كان يلقب في عهد أبيه أمنحتب الأول باسم أمير «كوش» وهي الكلمة المصرية القديمة التي تعبر عن الإقليم الواقع جنوب وادى حلفا.

ومن الثابت تاريخياً أن أول مملكة سودانية قامت في السودان عام ٧٥٠ ق.م. كانت متأثرة تأثراً قوياً بثقافة مصر

(١) تقويم السودان لسنة ١٩٤٩ ص ٢٦

(٢) حسن كمال «مصر والسودان» وقد ذكر أن أقدم رواية تاريخية

عن وحدة مصر والسودان مدونة في حجر بالرمو

(٣) Chaillé Long: L'Egypte et ses provinces perdues P. 40.

ودينها وأنها اتخذت «نباتة» على مقربة من «مروى» مقرأً لها وأن الملك كاشتا والملك بعنخى من ملوك هذه الأسرة وسلالتهم قد حققوا الوحدة مع مصر بل أسسوا الأسرة الخامسة والعشرين المصرية. فلما غزا الآشوريون مصر عام ٦٦٠ قبل الميلاد انسحب هؤلاء الحكام السودانيون إلى السودان وظلت سلالتهم نحو ألف عام تحكم المنطقة المحيطة بمروى إلى عام ٣٥٠ بعد الميلاد.

وقد عاد المصريون إلى تحقيق وحدتهم مع السهوانيين بعد دخول الإسلام إلى مصر في عام ١٣٤٠ بعد الميلاد إذ أسقطوا المملكة التي كانت قد اعتنقت المسيحية في شمال السودان واتخذت دنقلة مقرأً لها.

وفي عام ١٣٨٢ ميلادية أى في عهد دولة المماليك البحرية ورد الظاهر بيبرس الوحدة بين الشعبين النيلين إلى النوبة وسواكن.

وفي القرن الخامس عشر حلت أسرة مالكة إسلامية اتخذت سنار مقرأً لها محل الأسرة المالكة السودانية الجنوبية التي كانت لا تزال معتنقة المسيحية وتوطدت أركان الإسلام في ربوع السودان.

ويجمع الإخصائيون في علم الأجناس Ethnology على أن

العرب هم الذين أحدثوا أهم انقلاب « جنسى » فى شعوب أفريقيا وعلى الأخص فى الشعوب النيلية . ففى الشمال وفى الشرق ترك العرب أثراً واسعاً راسخاً بنشر الدين الإسلامى فى جميع أرجاء السودان . كما أن هؤلاء الإخصائيين يقررون أن الجغرافية « الفسيولوجية » لأفريقيا لا تضع عقبات فى طريق الحركات « الجنسية » أى رحلة الأجناس المختلفة من مكان إلى آخر وامتزاجها ^(١) ويقررون أيضاً أن العرب كانوا منذ عصر ما قبل التاريخ مختلطين بالمصريين وكان نشاطهم بادياً فى شمال أفريقيا ^(٢) وقد ثبتوا أقدامهم على شاطئ أفريقيا الشرقى وكانوا يقوموا بحملات مستمرة لاقتناص العبيد من الداخل حتى وصلوا إلى « الكونجو » وليس الجنس المعروف باسم « السواحلى » الذى يقطن شاطئ أفريقيا الشرقى من خط الاستواء إلى درجة ١٦ عرض جنوباً إلا مزيجاً من العرب و « البانتو » .

كما أن الامتزاج بين الليبيين والزنوج قد أثمر جنساً يدين بالإسلام ويقطن شاطئ أفريقيا الغربى من شمال النيجر إلى حوض النيل . وكما أحدث العرب أهم انقلاب

The Encyclopaedia Britannica ص ٣٢٦ (١)

J. Sergi : mediteranean Race (٢)

« جنسى » فى شعوب أفريقيا باختلاطهم بأهلها . أحدثوا أيضاً أبرز أثر فى تاريخها . وقد بدأ غزو العرب للقارة الإفريقية فى القرن السابع الميلادى وهم مؤمنون بالإسلام . وتابعوا الغزو من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطى .

وفى القرون الثامن والتاسع والعاشر بعد الميلاد كان عدد العرب المسلمين فى أفريقيا قليلا ولكن هجرتهم إليها زادت فى القرن الحادى عشر وامتزجوا بالبربر الذين كانوا قد أصبحوا يتحدثون باللغة العربية كلغة أصلية ويدينون بالإسلام . وامتد النفوذ العربى إلى الجنوب عبر الصحراء واستقروا فى شرق أفريقيا . واتضح أن العرب كانوا قد وصلوا إليه من قبل واستغلوا أراضيه الغنية كمباسا وزاولوا التجارة فى الوقت الذى كانت تجهل فيه أوربا كل هذه الأقطار الإفريقية كما كان يجهلها عرب شمال أفريقيا .

وقد تجلّى فى العرب الذين هاجروا إلى أفريقيا ما امتاز به جنسهم من روح المغامرة والتحمس فى بث الدعوة للإسلام وحفزتهم هذه الميزة على اكتشاف مجاهل القارة . وأعانهم استعمال الحمل فى قطع المسافات الطويلة عبر الصحراء فامتد نفوذهم إلى « سينجامبيا » وحوض النيجر الأوسط ودانت « تمبوكتو » بالإسلام عام ١٥٩١ . ولا شك أن أول وصف

علمى لشاطىء أفريقيا الشرقى هو وصف الرحالة « ابن بطوطة »
الذى وصل إليه عام ١٣٣٢ وأعطى صورة دقيقة للمدن
الإسلامية الزاهرة كمباسا وغيرها^(١).

وفى خلال القرن الخامس عشر الميلادى - وكانت مصر
تتزعج جميع البلاد العربية - طاف الرحالة البرتغالى فاسكوده
جاما حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى ميناء مالندى
Malindi فى شاطىء شرق أفريقيا عام ١٤٩٨ وكان ينحىل
إلى الأوربيين أنهم أسبق الناس إلى اكتشاف هذا الشاطىء
ولكن فاسكوده جاما التقى هناك بالرحالة العربى أحمد بن مجيد
وقد استعان الرحالة البرتغالى بما كان يحمله الرحالة العربى
من خريط بحرية دقيقة ومن أدوات ملاحية لم تكن معروفة
لدى الأوربيين وقد ظل اسم أحمد بن مجيد إلى أقل من قرن
مضى يذكر على أنه أمهر بحار طاف بسواحل أفريقيا
الشرقية بل هناك من يذهب إلى أنه هو الذى اكتشف
البوصلة البحرية .

وظل للعرب - حتى بعد أن بدأت أطماع الدول الأوربية
الاستعمارية تتطلع إلى أفريقيا - فضل السبق فى اكتشاف

(١) Richard Burton من بحث عن « البحارة العرب » العدد ١٠

السنة ٤ مجله « المستمع العربى »

مجاهل القارة . فقد أنشأوا مدينة زنبار في الجزيرة التي تحمل اسمها عام ١٨٣٢ ومنها بدأوا رحلاتهم إلى بحيرات شرق أفريقيا وحوض النيل الأعلى .

ولعل أدق وصف لحقيقة الأسباب التي يسرت للعرب المسلمين سبل التسلل إلى مجاهل القارة الإفريقية وعلى الأخص إلى الأقطار الواقعة على جانبي وادي النيل والتي لم يكن قد وصل إليها من قبل أحد قبلهم من غير أهلها النيلين هو ما قرره أحد المستشرقين الثقات في تاريخ الشرق الأدنى إذ قرر « أن روح المساواة الأخوية بين كل المسلمين تسود الإسلام وهذه الروح أخذ بها الغرب ودرسها ولكنها غريبة عن طريقة الحياة في المسيحية . والصلف الجنسي أى الاعتزاز بجنس معين ، كان لا وجود له في الإسلام فكل من آمن بالله يقبل كأخ له نفس الحقوق التي لغيره من المؤمنين سواء كان زنجياً أم من الجنس الأصفر أو أوروبياً ونجاح الإسلام العظيم في أفريقيا إلى اليوم يعود إلى هذه الروح »^(١).

وقد اتخذ الإسلام بعد انتشاره في السودان مظهراً شكلياً خاصاً كاد ينفرد به هذا الجزء من وادي النيل . هو إقبال

النيليين المسلمين من أهل السودان على الانضمام إلى الطرق الصوفية وأقدم هذه الطرق في السودان هي الطريقة القادرية التي كان قد أسسها السيد محي الدين عبد القادر الكيلاني في العراق وقد أدخلها إلى السودان في أوائل القرن السادس عشر الميلادي تاج الدين البحري وظلت هي الطريقة الوحيدة هناك إلى أن انقسمت إلى عدة فروع من أهمها الطريقة الأحمدية التي أسسها السيد أحمد البدوي في طنطا بمصر وقد أدخلت هذه الطريقة إلى السودان عقب وصول المصريين عام ١٨٢١ في عهد محمد علي الكبير إلى شمال السودان وأهم أنصارها في منطقة وادي حلفا .

وأكبر الطرق الصوفية انتشاراً في السودان هي الطريقة الختمية التي أسسها السيد محمد عثمان الكبير المولود في الحجاز عام ١٧٨٧ ومن فروعها الطريقة الإسماعيلية التي أسسها إسماعيل الولي في الأبيض ويكثر أتباعها في كردفان

* * *

ويبلغ مجموع عدد النيليين الأفريقيين سكان أوغندا وكينيا وتنزانيا ثلاثاً عشر مليوناً وستمائة ألف ، منهم ثلاثة ملايين وتسعمائة وسبعة وسبعين ألفاً في أوغندا وأربعة ملايين

وخمسة وخمسين ألفاً في كينيا وخمسة ملايين وخمسمائة وثمانين ألفاً في تنجانيقا .

ويبلغ فريق « البانتو » بين سكان أوغندة نحو مليونين أى نحو ثلثي مجموع عدد السكان وهذا الفريق يقطن الولايتين المعروفتين باسمي « بوغندا » و « بونيورو » أما الثلث الآخر من سكان أوغندة فإنه شعب نيلي بحت أى أنه سلالة القبائل التي هاجرت من السودان وهذا الفريق ينقسم إلى قسمين أحدهما يضم قبائل « أشولى » و « كاكوا » و « كوكو » و « جابودولا » و « شوبى » والآخر يضم قبائل « لوجبارا » و « مادي » وكلها قبائل تعيش تحت نفس الأسماء في جنوب السودان .

وفي تنجانيقا يسود عنصر « البانتو » ويكون غالبية السكان وهؤلاء « البانتو » في « تنجانيقا » هم ثمرة امتزاجين « جنسيين » متعاقبين أولهما امتزاج بين الأجناس النيلية السوداء « الزوج » والأجناس الحامية الأصلية أى ذات اللون الداكن وهذا الامتزاج أثمر فريق « البانتو » الأصلي الذي وزع على عدة قبائل تسكن ولاية « تابورا » . وثانيهما امتزاج بين هؤلاء وبين القادمين إلى تنجانيقا من الحاميين ذوى اللون الفاتح وقد أثمر هذا الامتزاج مجموعات إنسانية معروفة باسم « البانتو » الجدد وهذا

الفريق يسكن المنطقة الواقعة جنوب شرق بحيرة فيكتوريا .
وقد قدمت إلى تنجانيقا هجرات بشرية من قبائل « البانتو »
التي كانت مقيمة في « موزامبيق » وكينيا ، وغيرهما وسكنت
المناطق التي تقع شرق بحيرة نياسا وعلى شواطئ بحيرة فيكتوريا .
أما العنصر الحامى الشرقى فتمثله قبائل « المازى » التي
تقطن على الحدود بين تنجانيقا وكينيا .

وفى كينيا يبدو فريق « البانتو » واضحاً كما بدا فى القطرين
النيليين الآخرين بل أنه أكثر وضوحاً فى هذا القطر إذ يبلغ
هذا الفريق ثلثى مجموع السكان وهو موزع على ثلاث قبائل
رئيسية أولاها قبيلة « كامبا » ولا يعرف لها أصل أكيد وقبيلة
« كافيروندو » التي تضم نحو نصف مايون من المزارعين
والرعاة حول بحيرة فيكتوريا . وقبيلة « كيكويو » التي انتقلت
منذ أقل من قرن إلى كينيا . ويعيش إلى جانب هذه القبائل
الثلاثة قبيلة « ليو » التي يبلغ عددها نحو ستمائة وخمسين
ألف نسمة وهى من أصل نيلى بحت .

أما الفريق الحامى فى كينيا فتمثله ثلاث قبائل أهمها قبيلة
« المازى » وهم من الرعاة الرحل الذين أقبلوا من حوض النيل
الأعلى واستقروا أول الأمر فى المنطقة المحيطة بجبل « الجون »
وبحيرة رودلف وهم فى حرب مستمرة منذ أعوام طويلة وصراع

دائم مع القبائل الأخرى .

و « المازى » جنس نبلى حامى ينتمى إلى أصل حامى بحت وهم من نفس جنس الشعوب الحامية التى تسكن الحبشة وشمال أفريقيا ويظن أنهم انتقلوا إلى الجنوب تدريجياً مختلطين فى هجرتهم مع الشعوب النيلية حتى انتهوا إلى ما انتهوا إليه الآن أى حتى أصبحوا جنساً حامياً نيلياً ، وكانوا فى هجرتهم البطيئة نحو الجنوب ينشدون المراعى فأنتهوا إلى سهول كينيا ثم إلى سهول تنجانيقا التى كفتهم لاتساع مساحاتها والتى استطاعوا الاحتفاظ بها كمجالهم الحيوى بفضل نظامهم العسكرى وروحهم الحربية^(١) .

ويبدو أن الاستعمار البريطانى قد آلى على نفسه مهمة إفناء هذا الفريق من النيليين إذ أنه أرغم « المازى » على ترك السهول التى كانوا يعدونها مجالهم الحيوى فى كينيا وتنجانيقا إلى أرض شاسعة تكاد تكون صحراوية تقع فى جنوب نيروبي وتتجه إلى وديان كلمنجارو .

ويذهب المتوفرون على دراسة القبائل النيلية التى تعيش فى أوغندا وكينيا وتنجانيقا إلى أنه رغم تعدد هذه القبائل فإنها

Louis Roux : L'Est Africain Britannique Kenya. (١)
Tanganyika Uganda P. 46.

بحكم أصلها النيلى وتوالى التزاوج بين أفرادها كادت تصبح جنساً واحداً فإن قبيلة « الكافرونندو » التى سبق أن ذكرنا إنها إحدى قبائل فريق البانتو تضم فرعاً نيلياً أى من أصل نيلى بحت من الأصل الذى تنتمى إليه قبيلة « ليو » التى سبق أن ذكرنا أنها تجاور قبيلة الكافرونندو. وقبيلة « ليو » بحكم قدومها من النيل الأعلى تتصل بصلات المصاهرة والقربة بقبيلة « أشولى » التى سبق أن ذكرنا أنها تعيش فى شمال أوغنده وجنوب السودان (١)

ويبلغ عدد العرب المقيمين فى الأقطار النيلية الثلاث أوغنده وكينيا وتنجانيقا وفى ميناء زنبار على شاطئ أفريقيا الشرقى نحو ستين ألفاً وهم سلالة العرب الذين قدموا من عمان ومسقط واستقروا فى زنبار وتفرقوا على شاطئ أفريقيا الشرقى بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر .

ويبلغ عدد الهنود الذين استقروا فى هذه الأقطار النيلية الثلاث بين القرنين السابع عشر والثامن عشر — مائة وتسعة وستين ألفاً موزعين على الوجه الآتى واحد وتسعين ألفاً فى كينيا وأربعة وأربعين ألفاً فى تنجانيقا وأربعة وثلاثين ألفاً فى

أوغندة . ويشاهد المسافر في نيروبي وكامبالا وغيرهما من مدن
 الأقطار النيلية الثلاث أثر النشاط الهندي فيها فصور البانديت
 نهرو والمهاثما غاندى وجنه وأغا خان معلقة في المتاجر والمحال
 العامة التى يكاد الهنود يحتكرونها . وفى كل قرية من قرى
 الأقطار النيلية الثلاث حائك ثياب هندى . وقد احتفظ الهنود
 بالطابع المعمارى الهندى فى المباني التى أقاموها . وغالبية المسلمين
 الهنود الذين هاجروا إلى الأقطار النيلية الثلاث ينتمون إلى
 الطائفة الأسمايلية التى يترعها أغا خان ويبلغ عددهم ثلث
 عدد الهنود المقيمين فى هذه الأقطار .

أما المستعمرون الأوروبيون البيض - وسنشرح فى الفصل
 التالى قصة الاستعمار الأوروبى فى وادى النيل - فيبلغ عددهم
 فى الأقطار النيلية الثلاث ثلاثاً وخمسين ألفاً ومائة أوروبى
 منهم تسعة وعشرين ألفاً فى كينيا وستة عشر ألفاً ومائة فى
 تنجانيقا وسبعة آلاف وستمائة فى أوغندة .

ومن الثابت أن اللغات التى يتحدث بها النيليون المقيمون
 على شواطئ بحيرة فيكتوريا تتسم بطابع حامى وإن كان
 المتوفرون على دراسة لغات هذه المنطقة يقسمون هذه اللغات
 إلى قسمين رئيسيين أولهما اللغات النيلية السودانية التى تتحدث
 بها قبائل أشولى وما إليها من القبائل التى سبق أن ذكرنا أنها

تعيش في جنوب السودان وشمال أوغندا وإنها تربطها
 صلات مصاهرة وقرابة بقبائل ليو التي تعيش في كينيا واثانيهما
 اللغات النيلية الحامية التي تتحدث بها قبائل المازي وما إليها
 ويقرر هؤلاء الباحثون أن هناك حقيقة مادية لغوية تثير الانتباه
 هي أن هناك لهجة من لهجات لغة « البانتو » تأثرت تأثيراً
 قوياً باللغة العربية هي اللغة « السواحلية » . وهذه اللغة يتحدث
 بها خمسة عشر مليوناً من الإفريقيين بين شاطئ المحيط الهندي
 ووسط أفريقيا . وأن هذه اللغة السواحلية هي اللغة التي يتفاهم
 بها أهل الأقطار النيلية الثلاث . بل إنها اللغة التي يتفاهم بها
 الآسيويون والأوروبيون الذين هاجروا إلى هذه الأقطار .
 واللغة السواحلية تدرس في عدد كبير من المعاهد اللغوية
 في أوروبا ويذهب نفس الباحثين في لغات هذه الأقطار
 النيلية إلى أن اللغة السواحلية — وهي مزيج بين لهجات البانتو
 المختلفة والعربية — قد تسلت وانتشرت في داخل أفريقيا
 بانتشار التجار العرب وأن لغة البانتو هذه قد تغذت بعدد
 كبير من الكلمات العربية التي فقدت بعض كيائها الأصلية
 واكتسبت طابعاً جديداً كان ثمرة التأقلم مع اللهجات النيلية
 وأتاح لهذه اللغة سعة الانتشار .

واللغة السواحلية تدرس رسمياً في الأقطار النيلية الثلاث

مع أن البعثات الدينية الأوربية المسيحية كانت قد شنت عليها حرباً شعواء عند ما بدأ الاستعمار الأوروبي في وادي النيل^(١).

* * *

أما شعب السودان المصرى فيحسن أن نبدأ هنا بالحديث عن فريق هذا الشعب الذى يقطن المديريات الجنوبية الثلاث في التقسيم الإدارى الجديد وهى المديرية الاستوائية ومديرية بحر الغزال ومديرية أعالي النيل . وهى المديريات الواقعة على وجه التقريب جنوب خط عرض ١٠ شمال خط الاستواء .

ومن المعروف أن النيل الذى كان يسمى منذ خروجه من بحيره فيكتوريا إلى بحيرة ألبرت بنيل فيكتوريا والذى سمي بعد ذلك منذ خروجه من بحيرة ألبرت إلى الإبراهيمية « نيمولى » بنيل ألبرت أصبح يسمى منذ مروره بالإبراهيمية — وهى أقصى حدود أوغندة شمالا والسودان جنوباً — ببحر الجبل ويظل محتفظاً بهذه التسمية حتى يتجاوز خط عرض ٩ شمال خط الاستواء حيث يلتقى ببحيرة « نو » وبحر الغزال وهو أحد فروع النيل الغربية فيكتسب اسمه الرابع وهو النيل الأبيض .

وتذهب التقسيمات « الجنسية » لشعب جنوب السودان إلى أن القبائل التى تقطن غرب بحر الجبل وهى قبائل « الازاندى »

وعدها مائتان وثلاثون ألفاً و « المورو » و « المادى »
 هى قبائل سودانية ولى أن القبائل التى تقيم على ضفتى بحر
 الجبل وهى قبيلة « الدنكا » وعددها ثمانمائة وعشرون ألفاً
 و « النوير » وعددها ثلاثمائة وأربعون ألفاً و « الشيلوك »
 وعددها مائتا ألف هى قبائل نيلية وأن القبائل التى تقطن
 أقصى جنوب السودان أى الجزء الذى يقع شمال الإبراهيمية
 « نيمولى » حول « جوبا » عاصمة المديرية الاستوائية الحالية وهى
 قبائل « البارى » وعددها مائة ألف و « اللاتوكا » هى قبائل نيلية
 حامية وقد سبق أن ذكرنا أن هذه القبائل على صلات مصاهرة
 وقاربة مستمرة بقبائل أوغندة وكينيا وتذهب هذه التقسيمات
 نفسها إلى أن شعب شمال السودان الذى يقطن
 المديرية الست الشمالية وهى المديرية الشمالية والخرطوم
 وكسلا والنيل الأزرق وكردفان ودارفور والذى يبلغ عدده
 نحو خمسة ملايين إنما هو شعب جاء ثمرة الاختلاط بين
 الحاميين سكان الوادى الأصليين والعرب الذين قدموا من
 الشمال والذين ظلوا على مدى القرون يعبرون البحر الأحمر
 فى جماعات صغيرة قادمة من شبه الجزيرة العربية .

وأهم القبائل التى تقطن شمال السودان هى قبائل
 « الهاندوده » و « البشارين » و « بنى عامر » التى تقطن تلال

البحر الأحمر والتي تتحدث العربية بلهجاتها الحامية والنوبيون
وهي قبائل شمال السودان تتحدث العربية مطبوعة بطابع من
اللغة النوبية القديمة أما وسط السودان فتقطنه قبائل عربية
صميمة أهمها « الكواحله » و « الجعليين » و « البقارة » .
ومما لا شك فيه أن جميع شمال السودان يتكلم العربية
ويدين بالإسلام .

* * *

أما المصريون فلسنا في حاجة إلى أن نذكر في هذا البحث
الموجز أكثر من الحقيقة العلمية الثابتة وهي أنهم شعب من
أصل حامى امتزج بالعرب الساميين الذين توالى هجراتهم
على مصر على مدى القرون .

الاستعمار فى وادى النيل

مما يثير الانتباه أن أول محاولة بريطانية لاغتصاب أرض فى أفريقيا كانت المحاولة التى قامت بها بريطانيا فى شمال وادى النيل سنة ١٨٠٧ فى عهد محمد على الكبير فقد حاولت بريطانيا غزو مصر فاتفقت مع محمد الألفى أحد زعماء المماليك الناقمين على نظام الحكم الذى وضعه مؤسس الأسرة المالكة المصرية ونزلت الجيوش البريطانية فى الإسكندرية بقيادة الجنرال فريزر ثم زحفت إلى رشيد وكان محافظها إذ ذاك على بك السلانكى وأسرع محمد على فأرسل إليه وإلى غيره من حكام الموانئ المصرية يعرض استعداداه لإرسال المدد ولكن أهالى رشيد أكدوا أنهم قادرون وحدهم على صد الغزاة وقد تغلبوا فعلا على الجيش البريطانى الزاحف فى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ وكان ذلك النصر المصرى إيذانا بفشل الحملة البريطانية .

وعاد البريطانيون يحاولون التغلب على مقاومة المصريين فالتقوا بهم فى الحماة يوم ٢١ إبريل سنة ١٨٠٧ وكان البريطانيون

بقيادة الجنرال ستوارت ولكن المصريين تغلبوا في الحماة كما
تغلبوا في رشيد واضطر البريطانيون إلى توقيع الاتفاق الذى
تم بين الجنرال شيربروك وبين محمد على بدمهور فى ١٤
سبتمبر سنة ١٨٠٧ وهو الذى تعهد فيه بالجلء عن مصر.
وقد عمدت بريطانيا بعد أن فشلت محاولاتها فى وادي
النيل إلى ضم مستعمرة الكاب إليها فى سنة ١٨١٦ وظلت
تربص فى أقصى جنوب أفريقيا أول فرصة لكى تحقق
حلمها الاستعماري القديم فى شمال القارة وبالذات فى وادي
النيل. وكانت مصر بعد تولى محمد على الكبير الحكم قد
بدأت جهوداً عصرية جبارة لإدخال الحضارة إلى السودان
والوصول إلى منابع النيل وكشف هذه المنابع - التى كانت
إلى ذلك العهد مجهولة - للعالم المتحضر.

ولا يتسع هذا البحث للإفاضة فى جهود مصر الحديثة
لتحقيق وحدتها مع أقاليم النيل الجنوبية فمن الثابت أن
المصريين وصلوا إلى بربر على بعد ألف وخمسمائة وواحد
وثمانين ميلاً من القاهرة وهى التى تقع على خط عرض ١٨
شمالاً فى ١٠ مارس سنة ١٨٢١. وإلى سنار على بعد ١٥٩٤
ميلاً من القاهرة التى تقع على خط عرض ١٣ شمالاً فى ١٢
يونيو من نفس السنة. وتولى محمد بك الدفتردار صهر محمد

على باشا مهمة الوصول إلى أقاليم غرب النيل الأبيض فوصل إلى الأبيض عاصمة مديرية كردفان الحالية التي تقع على خط عرض ١٣ شمالاً وتوغل في مديرية دارفور في شهر إبريل من نفس السنة . كما أن الأمير إسماعيل بن محمد على تولى مهمة الوصول إلى فازوغلي في يناير سنة ١٨٢٢ . ومن الثابت أن المصريين هم الذين أنشأوا مدينة الخرطوم وأصبحت عاصمة السودان باتخاذ خورشيد باشا لها عاصمة للحكم . وهنا يقر إميل لودفيج في كتابه « النيل » .

« لقد تبين أمير مصرى - محمد على - ما لنقطة التقاء النيلين الأبيض والأزرق من أهمية حيوية في تاريخ العالم فأسمها الخرطوم حيث لا يسع الفكر إلا أن يتوقف حتى إذا لم تكن هناك مدينة قائمة . حيث يتعانق النيلان كشقيقتين » .

ومما يستحق الذكر هنا أن مؤرخاً أمريكياً قد اشترك مع المصريين في محاولة مساهمتهم للنيل من منبعه إلى مصبه في تلك الفترة من تاريخ مصر وهذا المؤرخ هو جورج بشيوم انجليش George Bethume English وقد أصدر كتاباً عن هذه الرحلة أتمها « حملة دنقلة وسنار تحت قيادة صاحب السمو إسماعيل باشا وبناء على أمر صاحب العظمة

محمد علي باشا نائب الملك في مصر بقلم أمريكي في خدمة نائب الملك » .

A Narrative of the expedition to Dongola and Sennar under the command of his Excellency Ismail Pacha undertaken by order of his Highness Mohamed Ali Pacha Viceroy of Egypt, by an American in the service of the Viceroy.

وقد أسلم هذا المؤرخ الأمريكي قبل سفر الحملة إلى أعلى النيل وأطلق على نفسه اسم محمد أفندي ويرجح المستشرق الأمريكي بيير كرابيتيس Piere Crabites القاضي السابق للمحاكم المختلطة في كتابه «أمريكيون في الجيش المصري» أنه لم يكن الأمريكي الوحيد الذي صحب المصريين إلى أعلى النيل في سنة ١٨٢٠ إذ أن اثنين من علماء الانجليز هما وادنجتون Waddington وهانبرج Hanburg قد أشارا في كتابهما صدر هو الآخر عام ١٨٢٢ وأسمياه «يوميات زيارة إلى بعض جهات الحبشة» إلى محمد أفندي وإلى أمريكي آخر صحب الحملة المصرية معه .

كما أن انجليش في كتابه المشار إليه سابقاً قد ذكر اسم أمريكي آخر كان زميلاً له في تلك الحملة المصرية وهو «خليل أغا» ذكر عنه أنه رجاء أن يحصل من الأمير إسماعيل

على إذن بمصاحبة الحملة وأنه ربما كان أول شخص قطع المسافة بين رشيد وسنار بواسطة النيل أى بواسطة البواخر المصرية التى عملت فى خدمة هذه الحملة .

ولم يستطع الاستعمار البريطانى عند ما اغتصب السودان فيما بعد أن ينكر جهود مصر فى هذا السبيل فأقام نصباً تذكارياً فى الميدان الرئيسى بمدينة « جوبا » عاصمة المديرية الاستوائية التى تقع على بعد ٤٧٨٧ كيلومتراً من القاهرة حفرت عليه التواريخ والأسماء التالية .

١٨٤٠ - ١٨٤١ - سليمان كاشف - سليم قبطان . وهذان العالمان أرسلهما المغفور له محمد على الكبير مؤسس الأسرة المالكة المصرية فى التاريخ المحفور على الحجر لمحاولة الوصول إلى منابع النيل قبل أن تفكر أية دولة أوربية فى محاولة كشف هذه المنابع . وسجلت المراجع العلمية أن ثانيهما سليم قبطان وضع أول رسالة علمية عن أواسط أفريقيا نشرتها له الجمعية الجغرافية الفرنسية فى سنة ١٨٤٢ ووصفت رحلة هذا المصرى بأنها إحدى ثمرات الحضارة التى دخلت مصر قبل ذلك بربع قرن أى بتأسيس الأسرة العلوية الكريمة .

وقرأت فى نفس التاريخ اسمى تيبو Thibault وارنو Arnand ثم اسمى Werne وسابتيه Sabatie والأولان

فرنسيان والثالث ألماني والرابع فرنسي وجميعهم أرسلهم المغفور له محمد علي في ذلك التاريخ بقيادة سليم قبطان وسليمان كاشف منذ قرن واحد وبضعة أعوام لاكتشاف مجرى النيل فاكتشفوا فتحة نهر السوبات على بعد ١٨٨١ ميلا من القاهرة واخترقوا بحيرة نو على بعد ١٩٦٧ ميلا من القاهرة ثم اكتشفوا فتحة بحر الغزال أى التقاء هذا النهر ببحر الجبل عند بحيرة نو وبلغوا يوم ٢٥ يناير سنة ١٨٤١ خط عرض ٥ عند غندوكرو الواقعة على بعد ٢٤٤٠ ميلا من القاهرة والتي سنرى فيما بعد أنها أصبحت تسمى «الاسماعيليه» في عهد الخديوى اسماعيل تيمناً باسمه عند إنشاء المديرية الاستوائية المصرية .

وكانت الأوساط الأوروبية الجغرافية قد تنبّهت إلى جهود مصر ومحاولاتها كشف منابع النيل فأوفدت الجمعية الجغرافية بلندن الرحالتين بيرتون Burton وسبيك Speke عام ١٨٥٦ للبحث عن هذه المنابع فاكتشف بيرتون بحيرة تنجانيقا وأصدر كتاباً عن رحلته أسماه مناطق البحيرات في أفريقيا الوسطى The Lake Regions of Central Africa وفى عام ١٨٥٨ اكتشف سبيك بحيرة أوكيرو وأسمّاها فيكتوريا وعدها منبع النيل ولكن زميله بيرتون لم يقره على ذلك وعاد

إلى منطقة منابع النيل مع الرحالة جرانت عام ١٨٦٠ عن طريق زنبار أى شاطيء أفريقيا الشرقى لتكملة كشف منطقة منابع النيل فجابا شواطيء بحيرة فيكتوريا وكان قد سافر صمويل بيكر عن طريق النيل محاولا الوصول إلى منطقة المنابع فوصل يوم ١٥ فبراير سنة ١٨٦٢ إلى غندكرو وهي أقصى نقطة كانت قد وصلت إليها بعثة سليم قبطان وسليمان كاشف كما سبقت الإشارة إلى ذلك وهناك التقى بيكر بالرحالتين سبيك وجرانت وعلم منهما بأنهما لم يتمكنوا من إتمام كشف منابع النيل وأن جزءاً مهماً من مجراه لا يزال غامض المعالم وأن أهالى تلك المنطقة أخبروهما أن النيل يصب بعد خروجه من بحيرة فيكتوريا فى بحيرة كبيرة يسمونها « موتا نزيجه » وأن النيل يدخلها ثم يخرج منها .

وفى ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ وصل بيكر إلى شاطيء البحيرة التى يصب فيها النيل بعد خروجه من بحيرة فيكتوريا أى البحيرة التى كان قد عبز الرحالتان سبيك وجرانت عن كشفها . ولما تولى المغفور له الخديوى إسماعيل حكم مصر تابع ما كان قد بدأه المغفور له محمد على الكبير فأعاد إيفاد صمويل بيكر باسم مصر لكشف منابع النيل .

وفى أول إبريل سنة ١٨٦٩ أصدر المغفور له

- إسماعيل باشا أمراً خديوياً عهد به إلى بيكر :
- ١ - إخضاع البلاد الواقعة جنوب غندوكرو «الاسماعيلية» .
 - ب - القضاء على النخاسة .
 - ج - إدخال نظام تجارى فى هذه المناطق .
 - د - فتح البحيرات الاستوائية الكبرى للملاحة .
 - هـ - إنشاء سلسلة من الحصون فى أواسط أفريقيا
- وفى ٢٣ إبريل سنة ١٨٧٠ أنشئت «التوفيقية» على بعد ١٨٧٥ ميلا من القاهرة وعلى مقربة من التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق وذلك تيمناً باسم ابن عاهل مصر إذ ذاك .
- وفى ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ رفع العلم المصرى على غندوكرو وسميت الإسماعيلية تيمناً باسم عاهل مصر إذ ذاك واتخذت عاصمة للمديرية الاستوائية .
- وفى ٢ مارس سنة ١٨٧٢ أنشئت «الابراهيمية» واسمها الحالى نيمولى وهى أقصى نقطة على حدود السودان جنوباً وأقصى نقطة على حدود أوغندة الحالية شمالاً وعلى بعد ٢٥٥١ ميلا من القاهرة تيمناً باسم والد عاهل مصر إذ ذاك .
- وفى ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ وصلت الحملة المصرية إلى ماسندى عاصمة ولاية أونيوورو وضمت الولاية إلى مصر .
- وقد أرسل بيكر إلى إسماعيل خطاباً ذكر فيه أن حدود

مصر قد أصبحت ممتدة إلى خط الاستواء ثم عاد فأرسل بأن العلم المصرى قد رفع على بعد درجة جنوب خط الاستواء وأن ملك أوغندة قد اعتنق الدين الإسلامى وأنه بنى جامعاً فى عاصمته وهذه المراسلات ملف فى محفوظات سراى عابدين العامة رقمه ٧٢ - ١ .

وما يجب ذكره هنا أن حملة صمويل بيكر كان قوامها ضباط مصريون منهم الأميرالاي رؤوف بك الذى عين فيما بعد حاكماً عاماً للسودان والبكباشى أحمد رفيق الذى استشهد أثناء الحملة وعبد القادر أفندى الذى قتل فيما بعد أثناء الثورة العربية والطيب أفندى عبد الله السودانى الذى تولى قيادة الأورطة السودانية. وقد استخدمت الحملة فى تنقلاتها الباخرتين المصريتين الإسماعيلية ونيانزا .

وإلى ذلك الوقت أى إلى عام ١٨٧٤ وعلى وجه التحديد ٢٠ فبراير سنة ١٨٧٤ كانت مصر والسودان تبدوان فى الأسرة الدولية كوحدة سياسية مستقلة وإن كانت سيادة الباب العالى النظرية المستندة إلى معاهدة لندن التى وقعت فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ لا تزال آثارها باقية .

ولم تكن الدول الأوربية قد بدأت ترنو إلى الانتقاص من هذه الوحدة أو تعكير صفوها. ولو أن إنجلترا كانت

قد وضعت قدمها في القارة الإفريقية باحتلالها مستعمرة الكاب
إلا أن اهتمام إنجلترا بالتوسع الاستعماري ضعف عام ١٨٥٤
بإعلان الاستقلال لبوير نهر الأورانج وكاد هذا الاهتمام
ينعدم عام ١٨٦٥ عند ما وافق مجلس العموم بالإجماع على
تقرير اللجنة التي انتدبها لبحث شؤون أفريقيا فقد نص
في هذا التقرير على أن كل توسع في الحصول على أرض
أو تولي السلطة وكل معاهدة تقضى بمنح أية حماية للقبائل
الوطنية يجب أن يقف كل إجراء بشأنه

All further extention of territory or assumption of
government, or new treaty offering any protection to
natives tribes, would be inexpedient.*

ولكن العقلية الاستعمارية لم تلبث أن استردت نفوذها
في توجيه السياسة البريطانية الخارجية ولعل أصدق تعبير
عن هذه العقلية هو ما ذكره السياسي البريطاني سيسل
رودس - الذي سميت مستعمرة رودس باسمه - في مذكراته
إذ قرر « إذا كان هناك إله فإن ما يجب أن يطلبه مني
هو أن أصبغ أوسع مساحة ممكنة من خارطة أفريقيا باللون
الأحمر البريطاني ! » .

وقد ذكر أميل لودفيج أن رودس كان يعلق في منزله

خريطة تنقسم إلى قسمين أعلاهما فيه الهلال المصرى وأسفلهما فيه رمز جنوب أفريقيا أى Springbok وبين الاثنين العلم البريطانى وهو يشير بذلك إلى وصل شمال أفريقيا بجنوبها بسكة حديدية تمر فى أراض بريطانية وكان يرى أن إنشاء هذه السكة يحقق حلم بريطانيا فى السيادة على أفريقيا من الشمال إلى الجنوب (١).

وفى ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ أصدر الخديوى إسماعيل أمراً خديوياً بتعيين جوردون حاكماً للمديرية الاستوائية وفى اليوم التالى ألحق بحملته الضابط الأمريكى شيليه لونج Chaille Long والفرنسى أوجست لينان ده بلفون August Linant de Bellefond والإيطالى رومولوجيسى Romulo Gessi وكانت الشائعات قد ذاعت فى الأوساط الجغرافية الأوروبية عن فقد الرحالة الانجليزى ليفينجستون Levingstone فأوفد الصحفى الأمريكى هنرى ستانلى إلى منطقة منابع النيل للبحث عنه والتقى به عند شاطئ بحيرة تنجانيقا وشرح ستانلى فى كتابه « كيف وجدت لفنجستون ؟ » آراء هذا الرحالة الإنجليزى الذى كان قد توفر على دراسة أوبئة المناطق الحارة. وأوجس الخديوى إسماعيل خيفة من رحلة ستانلى فكلف

الضابط الأمريكي لونج الذى ألحق بحملة جوردون أن يسبق حملة لندن وأن يبرم معاهدة مع ملك أوغنده . ومما يسجل هذا الحذر ما ذكره الكولونيل شيليه لونج فى الكتاب الذى أسماه « حياتى فى أربع قارات » فقد قرر « لدى دخولى كان الحديوى إسماعيل يمشى بخطى واسعة وهو متوتر الأعصاب فوجه إلى السؤال الآتى : أرأيت الجنرال جوردون ؟ فأجبت نعم يا مولاي ولقد قضيت معه أكثر الليل - فقال إذن أعزنى سمعك . لقد وقع الاختيار عليك لتكون رئيس أركان حرب لعدة أسباب أهمها المحافظة على المصالح المصرية وفى لندن يوشكون أن ينظموا حملة بقيادة رجل أمريكى يدعى ستانلى والغرض الظاهر من هذه الحملة نجدة الدكتور ليفنجستون أما الغرض الحقيقى فهو رفع العلم البريطانى على أوغنده فاسبق حملة لندن وأبرم معاهدة مع ملك أوغنده فتصبح مصر مدينة لك بواجب الشكر اذهب وليكفل الله مسعاك بالنجاح . »

ونفذ لونج أمر إسماعيل فصحب اثنين من الجنود السودانيين الذين كانوا قد حاربوا فى المكسيك باسم مصر ووصل فى ٦ مايو سنة ١٨٧٤ إلى فاتيكو جنوب خط عرض ٣ فى حدود أوغنده الحالية التى كان يتولى قيادتها منذ حملة بيكر

الصاغ عبد الله الدنساوى أحد الضباط السودانين الذين سبق أن حاربوا فى المكسيك ثم وصل إلى عاصمة أوغندة فى ٢١ يونيو ١٨٧٤ وعقد مع ملك أوغندة معاهدة اعترف فيها بحماية مصر لأقليمه ورفع لونج تقريراً فى هذا الشأن إلى الحكومة المصرية .

وفى ١٦ ديسمبر ١٨٧٤ اتخذت مصر هذه المعاهدة أساساً للمذكرة الرسمية التى أبلغتها إلى الدول التى أعلنت فيها ضم جميع الأراضى الواقعة حول بحيرتى فيكتوريا وألبرت إلى مصر وهذا هو نص المذكرة نقلاً عن كتاب مصر وأقاليمها المفقودة L'Egypte et ses Provinces Perdues الذى وضعه لونج :

« اتضح من آخر الأنباء التى وصلت إلى القاهرة أن جوردون باشا قد نفذ إلى إقليم مروى على ضفتى نهر سومرست— ويقصد الجزء من النيل الذى يصل بين بحيرتى فيكتوريا وألبرت والذى يسمى عادة نيل فيكتوريا— وقد أرسل جوردون باشا القوات الضرورية لإنشاء مركز حربي فى اوروندجانى ولإنشاء مركز آخر على ضفة بحيرة فيكتوريا على مقربة من شلالات رييون وبناء على ما ورد من الأنباء الأخيرة احتل جوردون مركز ماجونجو على شاطئ بحيرة ألبرت عند فتحة

نهر سومرت وبذلك وصل ماجونجو بمحطة دوفيليه الواقعة على النيل الأبيض فوق فتحة نهر اسوا كما تم ضم جميع الأراضي الواقعة حول بحيرتي فيكتوريا وألبرت مع كل فروع النيل التي تصب فيهما إلى مصر .

إننا سعداء إذ نعلن نتيجة أعمال هذه البعثة التي وفقت إلى تحقيق الهدف الذي حدده الخديوى إسماعيل وهو نشر الحضارة والزراعة والتجارة في هذه الأقاليم . »

وكان من ثمرات بعثة لونج باسم مصر إلى أوغندة عام ١٨٧٤ اكتشاف بحيرة كيوجا التي أطلق عليها لونج اسم إبراهيم تيمناً باسم والد عاهل مصر إذ ذاك . وقد تحقق بهذا الكشف بصفة قاطعة أن فرع النيل - نيل فيكتوريا الذي لاحظ سبيك عند اكتشافه بحيرة فيكتوريا عام ١٨٥٨ قبل ذلك بأربعة عشر عاماً أنه يخرج من هذه البحيرة - تحقق لونج أنه هو نفسه الذي يصب في بحيرة ألبرت بعد مروره ببحيرة إبراهيم التي كان يطلق عليها أهالى تلك المنطقة اسم بحيرة كيوجا كما أشارت إلى ذلك مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية فيما بعد بعدد يونيو منه ١٨٨٥ .

ووصلت البعثة الإنجليزية التي أوجس الخديوى إسماعيل منها شراً إلى البحيرات الكبرى في ١٥ إبريل عام ١٨٧٥

قادمة من شاطئ القارة الشرقى وكان يرأسها ستانلى مراسل صحيفة «نيويورك هيرالد» الذى - كما يقرر شيليه لونج - «كان من المؤكد أنه يحمل العلم البريطانى فى جيبه وهو على أهبة رفعه . ولكن جوردون كان قد أرسل إلى بلاط الملك متيسا عقب توقيع المعاهدة التى قبل فيها حماية مصر فرنسياً من موظفى الحكومة المصرية هو أرنست لينان ده سبلفون Ernest linant de Bellefonds وبذلك كان العلم المصرى محمياً حماية تامة» .

وقد قرر كيث جونسون Keith Johnson فى كتابه «أفريقيا» أن لونج قد سد فى علم الجغرافية النقص الذى كان يشوب معرفة العالم بمجرى النيل وزال كل شك فى أن هذا الفرع الذى اكتشفه لونج باسم مصر هو فرع النيل الرئيسى .

وفى خلال الشهور التسعة التى حكم جوردون أثناءها المديرية الاستوائية باسم مصر عام ١٨٧٤ أنشئت محطة عند مصب نهر السوبات على بعد ١٨٨١ ميلا من القاهرة وأنشئت محطة شامبى على بعد ٢٠١١ ميلا من القاهرة . ووصلت الباخرة المصرية «بردين» إلى الاسماعيلية على بعد ٢٤٤٠ ميلا من القاهرة ونقلت العاصمة الاستوائية من

الإسماعيلية إلى « لادو » .

وكان من ثمرات هذه البعثة المصرية رسم خريطة للنيل الأبيض من « الرجاف » على بعد ٢٤٥٤ ميلا من القاهرة إلى الخرطوم على بعد ١٣٥٦ ميلا من القاهرة .

وفي ١٠ فبراير سنة ١٨٧٥ وصل شيليه لونج مع ٧٠٠ جندي مصري وسوداني إلى مكراكا غرب النيل الأبيض وإلى نهر « يى » الذى يمر بأراضى الكونجو البلجيكي حالياً وجنوب غرب السودان .

وفي ١٢ إبريل سنة ١٨٧٥ وصل « أرست لينان ده بلفون » إلى قصر ملك أوغندة موفداً من قبل مصر فوجد هنرى ستانلى لديه وقد رأينا أن « لونج » كان قد سبقه فى الوصول إلى ذلك المقر يوم ٢١ يونيه سنة ١٨٧٤ .

وفي ٢١ إبريل سنة ١٨٧٦ انتهى « جيسى » من قطع بحيرة البرت بالباخرة فكانت هذه الباخرة المصرية أول باخرة مخرت مياه البحيرة .

وفي ٢٢ يوليو سنة ١٨٧٦ وصل أمين - وهو الاسم الذى أطلق على الدكتور ادوار شنتزر Eduard Schnitzer النمساوى بعد إسلامه والتحاقه بخدمة الحكومة المصرية - إلى عاصمة أوغندة فوجد أن حملة مصرية بقيادة الضابط نور محمد

احتلت العاصمة .

ويبدو أن جوردون لم يكن ينوى ضم أوغنده إلى مصر فقد اعترف أن الملك متيسا ملك أوغنده قد أقسم يمين الولاء لمصر في عام ١٨٧٦ ورغم ذلك فإن جوردون كان يرمى إلى ترك ذلك الملك مستقلاً وإلى قصر إقامة القوات المصرية في أوروبندجاني ولكن الملك متيسا نفسه هو الذي دعاها إلى عاصمته دوباجا^(١) وفي ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦ أرسلت مصر ١٦٠ جندياً إلى عاصمة أوغنده بناء على طلب ملكها .

وفي ٥ أغسطس سنة ١٨٧٦ وصل جوردون إلى شلالات مورشيزون عند مخرج النيل من بحيرة ألبرت .

وفي العدد رقم ٦٧٤ الصادر بتاريخ سبتمبر سنة ١٨٧٦ من الوقائع المصرية برقية وردت إلى الحكومة من جوردون : تنبئ بأن ملك أوغنده قد طلب جنوداً مصريين لمساعدته في إقامة عاصمة لملكه وقد وصف جوردون فيها عدة جهات سجل أنها أصبحت مصرية .

وفي ديسمبر سنة ١٨٧٦ وصل الأميرالاي Prout الأمريكى الموظف بالحكومة المصرية إلى « فاتيكو » و « مرولى » بين بحيرتى إبراهيم وألبرت الواقعتين الآن فى حدود أوغنده

(١) « رسائل جوردون إلى أخته » ص ١٧٦

و إلى « ماجونجو » على بحيرة ألبرت التي رأينا أنها ضمت إلى مصر بمقتضى المعاهدة التي بلغت للدول في ١٦ ديسمبر سنة ١٨٧٤ أى قبل ذلك بعامين .

وفي يونيو سنة ١٨٧٧ أتم الضابط « ميسون » الأمريكى الموظف بالحكومة المصرية رحلة بباخرة مصرية فى بحيرة ألبرت من « ماجونجو » وطاف الشاطئ الغربى للبحيرة فكانت ثانى رحلة تنظمها مصر فى هذه البحيرة بعد رحلة « جيسى » فى العام السابق .

وكان قد بدا فى السياسة البريطانية الخارجية اتجاه إلى التوسع الاستعمارى فى أفريقيا وظهر لهذا الاتجاه صدى فى تصرفات « تشارلز جوردون » الذى وإن كان يمثل الحكومة المصرية فى المديرية الاستوائية إلا أنه لم ينس قط جنسيته البريطانية فقد أمر فى أواخر عام ١٨٧٦ أى قبل تركه خدمة الحكومة المصرية لانتهاء عقد خدمته بسحب القوات المصرية من « أونيوورو » و « أوغندا » وكان الخديو قد أنعم عليه بالوسام المحيدى الأول ولم يصله خبر الإنعام إلا بعد أن صدر منه أمر سحب تلك القوات فاعترف بأنه ارتبك ولم يعد يدري ما ذا يفعل إزاء هذا الموقف .

ورغم الأمر الذى أصدره تشارلز جوردون ظلت الوحدة

بين مصر والأقاليم الجنوبية أى بين شعب وادى النيل فى الشمال والجنوب قائمة محترمة فى الأسرة الدولية .

ولم يكن إيمان الخديو إسماعيل بتحقيق هذه الوحدة مجرد متابعة لسياسة مصر التقليدية وعلى الأخص لسياسة جده مؤسس الأسرة المالكة المصرية وإنما كان قد جد عامل دولى زاد اقتناع إسماعيل بهذه الوحدة ودعم — من الوجهة الدولية — جهوده لتحقيقه .

فغير خاف أن إسماعيل كان متأثراً لحد كبير بالثقافة الإيطالية وبالفنون الإيطالية وقد ظهر فى عام ١٨٥١ مذهب فى القانون الدولى العام دعا إليه الأستاذ بسكال منشئ فى المحاضرات التى ألقاها على طلبته بجامعة تورين وهذا المذهب يرمى إلى إعطاء كل أمة تجمع بين أفرادها رابطة الجنس واللغة والأفكار الحق فى أن تتحد لتصبح دولة وأن كل دولة تتكون من أفراد ليست بينهم تلك الرابطة إنما تقوم على الاستبداد والعدوان. وكانت هذه النظرية من أهم المبررات التى استند إليها جريبالدى فى توحيد إيطاليا وفصلها عن النمسا^(١) .

وكانت بعض شعوب أوروبا فى ذلك العهد تترشح تحت نير استبداد الدول العظمى التى تفرض جنسيتها وسيادتها

على تلك الشعوب التي كانت تختلف عنها جنساً ولغة وديناً
فأمن بتلك النظرية البلجيكيون وروج لها علامتهم لوران
Laurent الذي قرر أن الأمم من عند الله Les Nations sont
de Dieu فلا يملك الإنسان أن يتحكم في مصيرها وبشر
بهذا المذهب في المحاضرات التي ألقاها بجامعة جاندا (١)
وضمنها كتابه «دراسات عن تاريخ الإنسانية» وقد توفي
عام ١٨٨٧ أى أنه عاصر حكم إسماعيل .

وبذلك ظلت الوحدة بين مصر وأقاليمها الجنوبية متحققة
محترمة في الأسرة الدولية تدعمها النظريات التي استجذت
في محيط القانون الدولي العام . ومما يقطع بأن العلاقة بين مصر
وأقاليمها الجنوبية إنما كانت علاقة وحدة تتساوى في نطاقها
حقوق المواطنين لا علاقة دولة سيدة باقليم تابع أو بمستعمرة
أن الحكومة المصرية التي كان يرأسها شريف باشا قد قدمت
إلى مجلس شورى النواب بجلسة انعقدت يوم ١٨ مايو سنة
١٨٧٩ اللائحة الأساسية أى الدستور وقد نصت المادة ٣٤
من هذا الدستور على أن «أعضاء مجلس النواب لا يزيدون
عن ١٢٠ نائباً بما فيهم نواب السودان» ونصت المادة الثامنة
على أن كل «نائب يعتبر وكيلاً عن عموم الأمة المصرية

وليس فقط عن الجهة التي انتخبته» (١) كما أن لائحة الانتخاب التي قدمت إلى مجلس شورى النواب بجلسته التي انعقدت يوم ٢ يونيو سنة ١٨٧٩ قد نصت المادة ٣٥ منها على انتخاب ستة عشر نائباً عن السودان . ولكن الدول الأوربية هالتها هذه الروح الديمقراطية التي بشرت بها مصر قبل أن تخطر لدولة من دول الغرب فأسرت بالإجهاز على عهد إسماعيل وتولى الخديو توفيق حكم مصر في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وتابعت مصر نفس السياسة فاستصدرت وزارة محمد شريف باشا من الخديو الجديد دستوراً جديداً في ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ . ثم استصدرت قانون انتخاب نصت المادة ١٢ منه على انتخاب اثني عشر نائباً عن أقاليم السودان . وفي أغسطس سنة ١٨٨١ كان قد بدأ محمد أحمد المهدي يدعو في جزيرة أبا على مقربة من دنقلة إلى مذهبه الديني فانتشرت هذه الدعوة وأيده فيها عبد الله التعايشي في الوقت الذي كان فيه رءوف باشا حاكماً عاماً على السودان من قبل مصر . فلما شعر رءوف باشا بخطر الدعوة التي كان يروجها محمد أحمد المهدي أرسل يستدعيه إلى الخرطوم فرفض وبدأت حركة العصيان المهدية تتخذ شكلاً سياسياً ثورياً

شمل أجزاء عديدة من الأقاليم الجنوبية واستولى الثوار على الجزء الجنوبي من كردفان . وفي نفس الوقت قامت في مصر ثورة أحمد عرابي باشا وأقبلت البوارج الإنجليزية إلى الإسكندرية فضربتها في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم نزلت إلى المدينة بحجة حماية الخديو من العرابيين ودخلت إلى القاهرة ثم تم تسليم العرابيين في ٢١ سبتمبر عام ١٨٨٢ بالاستيلاء على القلاع المصرية من الإسكندرية إلى الجميل بين دمياط وبورسعيد . وانصرفت مصر بطبيعة الحال إلى أحداث الثورة العرابية فساعد هذا على انتشار الدعوة المهدية في الأقاليم الجنوبية وعلى زيادة نفوذ زعيم هذه الدعوة محمد أحمد المهدي .

وتطورت السياسة الإنجليزية بالنسبة لأفريقيا تطوراً كبيراً وأسفرت عن سياسة تدخل صريحة. وقد عزل رءوف باشا من منصب حاكم عام السودان وولى مكانه عبد القادر حلمي باشا فأرسل في طلب خمسة عشر ألفاً من الجنود المصريين ليقضى على الثورة المهدية ولكن الإنجليز الذين كانوا قد بدأوا يتحكمون في أقدار الجيش المصري بتعيين سير إيفلين وود أول سردار إنجليزى له رفضوا طلب عبد القادر باشا حلمي ثم أقصوه من منصبه وعين الجنرال هيكس Hicks قائداً للقوات المصرية في السودان وهو ضابط متقاعد من

القوات الهندية وجمعت له فلول الجيش العربى الذى كان قد قاوم القوات البريطانية قبل ذلك ببضعة شهور ولم يزل بعد من نفوس ضباطه شعور الحقد والكراهية لها. وأرغم هؤلاء الضباط المصريون على العمل تحت رئاسة ضابط بريطانى أثبت جهله المطبق منذ بدء الحملة يساعده رئيس أركان حرب إنجليزى هو الكولونيل فاركوهار Farkuhar لا يقل عنه جهلاً. ولما نكبت حملة « هيكس » وفى الجيش المصرى الذى قاده وكان عدده ١٢,٩٠٠ اثنى عشر ألفاً وتسعمائة جندى فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٣ وجهت الحكومة الانجليزية « نصيحة » إلى الحكومة المصرية بوجوب إخلاء السودان فرفض شريف باشا رئيس الوزارة المصرية. وعندئذ اضطر لورد جرانفل الوزير الإنجليزى إلى أن يشرح معنى كلمة « النصيحة » إذا صدرت من وزير إنجليزى إلى وزير مصرى. وهنا يقرر مسترونستون تشرشل فى كتابه « حرب النهر » بصراحة بعد أن وضع كلمة « نصيحة » بين قوسين (١):

« أن الخديو انحنى أمام القوة التى تفوق سلطته واستقال

Winston Churchill : The River War P. 37.

(١)

والنص الانجليزى لعبارة تشرشل هو

Th. Khediver bowed to superior authority.

The Ministe resigned. The Palicy of evacuation was firmly adopted.

الوزير ونفذت سياسة إخلاء السودان تنفيذاً حاسماً .

ولكن شريف باشا قد سجل في كتاب استقالته الذى أذاعه « إن الحكومة البريطانية تحتم علينا إخلاء السودان مع أن قبول هذا الإخلاء ليس من حقنا لأن هذا البلد هو من ممتلكات الباب العالى وقد سلمنا حراسته . تقول حكومة الملكة إن من واجبات مصر الإذعان لمشورتها بدون مناقشة وهذا تعد صارخ على فرمان ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ القاضى بأن الخديو يحكم مع وزرائه وبواسطتهم وقد استقلنا لأنه حجر علينا أن ندير الأحكام بمقتضى هذا الدستور »

وكان لا بد لتنفيذ سياسة إخلاء السودان من إرسال حملة لإعادة القوات المصرية إلى مصر فأرسلت الحكومة الإنجليزية تسأل الحكومة المصرية عما إذا كانت توافق على أن يتولى الجنرال تشارلز جوردون - الذى بدأ خدمته للحكومة المصرية فى السودان أثناء عهد إسماعيل والذى رأينا أنه لم يكن أميناً فى أداء واجبه كموظف مصرى للأوامر التى أصدرها بإخلاء مديريةية خط الاستواء من القوات المصرية بدون أن يتلقى تعليمات بذلك من الدولة التى كان يعمل باسمها وهى مصر - فأجابت الحكومة المصرية بواسطة سير إيفلين بيرنج Evelyn Baring بأن الحركة التى قامت فى السودان إنما

كانت لواعز ديني ولذلك فإن مصر تعارض في تعيين مسيحي في مركز القيادة العليا للحملة التي كان مزمعا إرسالها . وأرسل سير إيفلين بيرنج ممثل بريطانيا في مصر رسالة في ٩ ديسمبر عام ١٨٨٣ إلى حكومته قرر فيها « مهما كانت أخطاء الزبير باشا فإنه رجل عرف عنه النشاط العظيم والعزم ، والحكومة المصرية ترى أن خدماته قد تعود بأكبر المنفعة كما أن بيكر باشا توافق إلى أن يمكن من الاستفادة بخدمات الزبير باشا » .

وبذلك أصبح من الواضح أن المصريين حتى بعد الاحتلال الإنجليزي كانوا يعارضون معارضة شديدة في أن يتولى بريطاني حملة إخلاء السودان وكذا يرشحون سودانياً هو الزبير باشا من المؤمنين بفكرة الوحدة لأداء هذه المهمة وكان يؤيدهم في هذا الاتجاه نفس ممثل بريطانيا في مصر سير إيفلين بيرنج إلا أن الحكومة البريطانية أصرت على وجوب تعيين الجنرال جوردون في المنصب المقترح .

ولما وصل جوردون إلى مصر ذهب لزيارة شريف باشا وزير مصر الأول الذي كان قد استقال احتجاجاً على موقف الإنجليز من السودان والتقى في هذا المنزل بالرجل الذي كان قد اعتزم أن يتلاقى لقاءه وهو الزبير فتحدثا عن السودان ولم يكذب انتهى هذا الحديث حتى أسرع نفس جوردون إلى الوكالة

البريطانية وأنباء سير إيفلين بيرنج بأن الزبير يجب أن يصحبه
توّاً إلى الخرطوم ثم عاد عقب وصوله إلى الخرطوم فأرسل برقية
إلى القاهرة يرجو فيها رسمياً إرسال الزبير باشا .

هذه الحقائق التاريخية ليست وحدها الدليل الذى يقطع
بأن إنجلترا ما كانت ترى حتى ذلك الوقت أن لها أملاً
فى تثبيت قدمها فى أقاليم مصر الجنوبية أو حقاً أو شبه
حق من الوجهة الدولية فى احتلال السودان . وهنا فقرة من
كتاب « حرب النهر » لمستر تشرشل ذكر فيها :

« إن جوردون تقدم بالرجاء أن ترسل إليه فى السودان
قوات تركية فلم ترسل إليه القوات التركية وطلب أن ترسل
إليه قوات من المسلمين الهنود ولكن الحكومة البريطانية
اعتذرت بأن هذه القوات عاجزة عن أداء المهمة التى طلبها
منها » (١) .

ومن هذا الكلام الذى يقرره المؤرخ ونستون تشرشل
يتضح جلياً تسليم إنجلترا بأن السيادة على السودان إنما كانت
للدولة التركية وأنه ما كان ممكناً لقوات غير إسلامية أن
تشارك فى حملة إخلاء السودان .

ولا داعى فى هذا المقام لأن نسهب فى ذكر ما تم بعد ذلك

من حصار المهديين للخرطوم حصاراً دام ثلاثمائة وسبعة عشر يوماً وانتهى بقتل جوردون في ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ بعد أن اعترف بصريح العبارة أنه لو كانت الحكومة الإنجليزية قد قبلت إرسال الزبير الذي رشحته الحكومة المصرية لقيادة الحملة لما سقطت بربر إطلاقاً في يد الثوار ولأمكن في ليلة واحدة تأليف حكومة سودانية تقاوم المهدي (١).

ومما لا شك فيه أن الحكومة المصرية كانت محقة في رفض تعيين تشارلز جوردون قائداً للحملة إخلاء السودان وأن إصرار الحكومة الانجليزية على تعيينه قد أصاب مصر بنكبة مفرجة للأسباب الآتية :

١ - إن إدارته للسودان من قبل كانت إدارة سيئة غاية السوء من جهة اختياره لمساعديه ومن جهة الرجال الذين كان يعهد إليهم بمالية السودان دون أن يراقبهم أية مراقبة . إلى حد أنه عند ما ذهب إلى السودان كان يرتع في بحبوحة الرخاء فتركه في عام ١٨٧٩ مثقلاً بالدين وعلى وشك الثورة (٢) .

٢ - إن الحكومة المصرية كانت واثقة من أن تعيين

Gordon : Journals at Khartoum.

(١)

Chaillé Long L'Egypte et ses provinces perdues : P. 187. (٢)

مسيحي في مركز قائد الحملة سيسيء إلى عواطف أهالي الأقاليم الجنوبية. ولم تثر هذا الاعتراض بالنسبة لجوردون الإنجليزى وإنما أثارته بالنسبة لغيره. فإن المؤرخ والرحالة الأمريكى شيليه لونج عند ما علم بثورة المهدي في عام ١٨٨٣ وكان في باريس أسرع فغادرها وعرض أن يضع سيفه في خدمة خديو مصر لاسترداد سلطته على السودان ولكن الخديو توفيق باشا أجابه على لسان الدكتور أباتى باشا شاكراً له عرضه معتذراً بأنه نظراً لطبيعة الحركة الدينية فإن كل عنصر أوروبى يجب أن يستبعد لكيلا نعطى للشوار أى مبرر لتفاقم هذه الحركة (١).

٣ - إن جوردون لم يكد يصل إلى الخرطوم حتى أذاع منشوره الشهير بإعادة السماح بتجارة الرقيق ووقعه باسم «والى وسلطان السودان» وقد خيل إليه أنه بذلك يستميل بعض الذين كانوا يستفيدون من تلك التجارة من أبناء الأقاليم الجنوبية ولم يتورع - متأثراً بهذا الوهم - عن أن ينقض المعاهدة التى كانت مصر وإنجلترا قد وقعتاها في ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ بشأن إبطال تجارة الرقيق والتى أشير في المادة الأولى منها إلى «سابق صدور لائحة من الحكومة الخديوية بمنع بيع الرقيق

السودانى والحبشى فى الجهات التابعة لها (١) .

وقد لوثت سمعة الحكومة المصرية فى الأسرة الدولية بهذا المنشور الذى أذاعه ممثلها الإنجليزى تشارلز جوردون ولو أن صحيفة « التيمس » أرادت تبرير تصرف جوردون فنشرت مقالاً زعمت فيه « أن كل إحصائى فى هذا الشأن يعرف أن الرق المنزلى قد نشأ فى الشرق من عهد إبراهيم . وهو يختلف عن الرق الفظيع الذى كان موجوداً فى حقول الجنوب بالولايات المتحدة الأمريكية ! »

٤ - ان جوردون قد أحرق كل آثار الحكومة المصرية المشرفة التى كانت بالخرطوم وكل سجلات الضرائب وكل ما من شأنه أن يفرض التزاماً على الممولين من أبناء الأقاليم الجنوبية لكى يوجههم أن حكومة المستقبل لن تعتمد على أى مورد مالى من ضرائب الممولين (٢)

وما يثير الدهشة بل العجب أن المؤرخ ونستون تشرشل فى معرض الكلام عن آثار الوحدة بين مصر والسودان فى أواخر عهد الحكم المصرى أى قبيل نشوب ثورة المهدي قد ذهب إلى تلويث سمعة المصريين فى السودان وإلى تبرير هذه

(١) فيليب جلا د : القاموس العام للإدارة والقضاء المجلد الثانى ص ٢٣٨

(٢) Chaillé Long; P. 193

الثورة تبريراً بلغ إلى حد أنه زعم « أن انتصارات المهدي كانت في مدة حياته أعظم بمراحل من انتصارات النبي الذي كان أول من بشر بالدين الإسلامي وهو النبي محمد (١) ». وقد دعا في نهاية الفصل الأول من كتابه أول مؤرخ عربي سيتوفر على دراسة المراحل الأخيرة لحياة الشعب السوداني إلى أن يضع اسم محمد أحمد المهدي بين أسماء أبطال أمته . وقد سمي الفترة التي استمرت فيها حركة العصيان المهدية باسم إمبراطورية الدراويش وقد دامت هذه الفترة من عام ١٨٨٥ إلى عام ١٨٩٨ ولم يعيش محمد أحمد المهدي إلا نحو خمسة شهور بعد سقوط الخرطوم فلما مات تولى عبد الله التعايشي زعامة حركة العصيان . وكانت إنجلترا قد بدأت تتبع سياسة التدخل في شئون مصر والسودان ولذلك نجد صدى لتبرير هذه السياسة في كتاب « حرب النهر » إذ أن مؤلفه بعد أن ارتفع بزعم حركة العصيان المهدية إلى مرتبة أعلى من مرتبة النبي وهو في معرض التنديد بالحكم المصري في السودان عاد فهو في هذه الحركة إلى الحضيض إذ ذكر أن عبد الله التعايشي وهو من قبيلة البقارة بدأ بعد أن تولى السلطة في أن يدعو أبناء قبيلته إلى الحجى والإقامة في أم درمان . وأنه كان يكتب إليهم في رسائله العديدة

فيقول « تعالوا وتملكوا الأرض التي أعطاه الله لكم » وهنا يصف تشرشل أنصار الثائر السوداني بأنهم « الرعاة المتوحشون الذين بهرتهم الأطماع المالية ورغباتهم في الحصول على زوجات جديدات والوعود التي بذلت لهم لتمكينهم من السطوة والقوة وأن ما كان ينسى الخليفة التعايشي أو يرفض أن يعطيه لهم كانوا يحصلون عليه بالسرقة والنهب والسطو وهي جرائم كانوا يرتكبونها في عنف وهم محتمون بالحصانة التي منحت لهم لقرباتهم للخليفة » .

وليس هذا الوصف في حاجة إلى تعليق لأن السودانيين الذين كانوا ضحايا الحكم المصري أصبحوا في عرف مؤلف كتاب « حرب النهر » لصوصاً وسفاكين لأن الحكومة البريطانية كانت في ذلك الوقت قد رأت أن تنفذ سياسة التوسع الاستعماري على حساب وحدة مصر والسودان . . . !

* * *

« لم يحشد ستانلي كتبه بالإشارة إلى مبادئ المسيحية والحب الأخوي وهي المبادئ التي لم يشعر بها قط ؟ أن ستانلي كان ينظر دائماً إلى الرجل الأسود نظرتة إلى عدو »
(أميل لودفيج - من كتاب العبقريّة والشخصية)

ظلت مصر ثابتة القدم في المديرية الاستوائية حتى بعد الاحتلال البريطاني في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وبعد الثورة المهدية وقتل «جوردون» في ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ واحتلال المهديين للخرطوم واستشارهم بالسلطة عقب ذلك - وقد تابع أمين - آخر حاكم لمصر في المديرية الاستوائية - أداء واجبه هناك بعد يوم ١٦ مارس سنة ١٨٨٣ وهو اليوم الذى وصلت فيه الباخرة تلحوين إلى لادو عاصمة المديرية الاستوائية وهى آخر باخرة مصرية وصلت من الشمال إلى الجنوب إذ انقطع بعدها ورود البواخر أو البريد أو المدد بسبب إستيلاء المهديين على السلطة وقطع الطريق بين مقر الحكومة المركزية فى القاهرة وأقاليم السودان .

وكان أمين مؤمناً بوجوب الاحتفاظ بجميع منابع النيل التى وصلت إليها مصر وكان «جوردون» - كما رأينا - قبل أن يتولى أمين إدارة المديرية الاستوائية قد أصدر أمراً بإخلاء الجزء الجنوبي الذى يقع جنوب نيل فيكوريا أو نهر سومرست كما يسمى أحياناً الذى يصل بحيرتى «فيكتوريا» و«ألبرت» وعد هذا النهر حداً جنوبياً للمديرية فرفض أمين إذ ذاك أن ينفذ الأمر واضطر جوردون إلى استدعاء «جيسى» من بحر الغزال لينفذه ولكن جوردون استقال فلم

يكد أمين يتولى إدارة المديرية حتى عاد إلى تنظيم الإدارة المصرية في هذا الجزء الجنوبي .

وقد بقي « أمين » حاكماً للمديرية الاستوائية عشر سنوات بين سنتي ١٨٧٨ ، ١٨٨٩ وخير ما يلخص الحكم المصرى في المديرية الاستوائية إذ ذاك هو الكتاب الذى أصدره فيتا أفندى حسان الصيدلى الذى عينته الحكومة المصرية لإدارة مستشفى المديرية الاستوائية فى « لادو » والذى أسماه « الحقيقة حول أمين باشا » فقد ذكر أن المديرية الاستوائية كانت مقسمة عند بدء الثورة المهدية عام ١٨٨١ إلى عشر مراكز وكان كل مركز مقسماً إلى جملة محطات فبلغ عدد المحطات ١٨٠ ومراكز المديرية الاستوائية فى آخر العهد المصرى كانت على النظام الآتى :

بور على الضفة النيل « بحر الجبل » الشرقية .

لادووكيرى على الضفة النيل « بحر الجبل » الغربية ودوفيليه على الضفة النيل « نيل البرت » الغربية . وفاديبيك شرق النيل « نيل البرت » ولاتوكا شرق النيل « بحر الجبل »

رول ومكراكا وممبتو غرب النيل « بحر الجبل »

ولعل أول دراسة علمية لقبائل جنوب السودان هى الدراسة

التي تضمنها هذا الكتاب « الحقيقة حول أمين باشا » الذي صدر لبيان ما بذلته مصر في أقاليمها الجنوبية من جهد في إدخال الحضارة إليها فقد تضمن هذا الكتاب حقائق لم تتضمنها الكتب الأوروبية والأمريكية التي أصدرها المبشرون عن هذه القبائل فيما بعد . إذ قرر مؤلفه أن قبيلة الدنكا تسكن منطقة بور وأن قبيلة الباري تسكن لادووكيري أي المنطقة التي حول جوبا عاصمة المديرية الاستوائية الحالية وأن قبيلة المادى تسكن دوفيليه كما تسكنها قبيلة الكوكو . وأن قبيلة المانجنجو تسكن فويرا وقبيلة لاتوكا تسكن لاتوكا وهي تتوسط الآن بلدة توريت من أعمال المديرية الاستوائية شرق النيل « بحر الجبل » وأن قبيلة الشولى تسكن فادييك بين لاتوكا وفويرا وأن قبيلة ماكراكا تسكن غرب النيل « بحر الجبل » وقد قسم قبيلة الدنكا إلى قسمين ، الدنكا الجانجية وتسكن شمال المديرية الاستوائية ومديرية بحر الغزال والدنكا السجيحة وتسكن مع النوير والشيلوك منطقة فاشودة في مديرية أعالي النيل الحالية . وقرر المؤلف أيضاً أن قبائل نيام نيام وهي التي يطلق عليها الآن في التعبير الأثنولوجيك اسم زاندى تسكن غرب المديرية الاستوائية على حدود الكونغو البلجيكي في المنطقة التي تتوسطها الآن

بلدة (يامبيو) وذكر أن أفراد هذه القبيلة من أكلة لحوم البشر وهى الأخرى حقيقة علمية أتولوجية أيدتها الدراسات العلمية اللاحقة لهذا الكتاب المصرى .

كما قرر فى الكتاب نفسه أن أمين باشا أدخل إلى المديرية الاستوائية زراعة القطن والأرز وجملة أصناف من الخضر والفاكهة والمطلع على الإحصاءات الرسمية لنظام الحكم المصرى فى المدينة الاستوائية يتضح له أن مصر كان لها ٩٩٠ جندياً نظامياً و ٥٤٠ من الخطرية و ٤٠٠ من التراجمة وأن مجموع قبائل الزنوج فى هذه المديرية قبل إرغام مصر على إخلائها كان نحو نصف مليون . ويتضح جلياً عن التقرير الذى وضعه أمين باشا فى سنة ١٨٨٢ عن أحوال المديرية الاستوائية ما لهذه المنطقة من موارد ثروة ومواد خام كانت هى السبب فى المحاولات الاستعمارية التى بذلت فيما بعد لاغتصابها من مصر .

فقد ورد فى هذا التقرير بعد استعراض ما تضمنه المديرية من مواد خام .

» وهكذا تتوفر لدينا مجموعة من مواد النسيج ومجموعة من مواد التلوين وعدا ذلك فأمامنا ميدان رحب فسيح للتجارة وللصناعة وعلى الأخص فى القسم الجنوبي من المديرية وأينما ذهبنا نجد الكثير من الحديد الجيد وما ذاب

وسوته يد الصانع فى البلد نفسه انقلب أداة نافعة فيكثر طلبها فى الشمال والغرب حيث أسنة الحراب والسهام ويقم أشهر الحدادين فى « ممبتو » و « مكراكا » أى غرب النيل « بحر الجبل » والبعض منها نال فى هذه الصناعة شهرة فائقة وأظن أن المديرية الاستوائية تحمل فى جوف أرضها من أنواع المعادن كنوزاً لا تزال خافية عن أنظار العالم .

وقد تطور الحكم المصرى فى المديرية الاستوائية بعد أن وصل المهديون فى منتصف يونيو سنة ١٨٨٢ بقيادة « نور عنقرة » إلى بحر الغزال وكان مديرها إذ ذاك « لبتون بك » فطرات فكرة فى « لادو » عاصمة المديرية ترمى إلى إخلاء المديرية .

ولكن الضباط المصريين والسودانيين الذين كان عدد كبير منهم قد اشترك فى الحملة المصرية التى أرسلت لتحارب فى المكسيك فى أواخر عهد الخديو سعيد وعادت إلى مصر فى أوائل عهد الخديو إسماعيل عارضوا فى إخلاء المديرية وتزعم المعارضة الضابطان « مرجان الدناصورى » وهو من ضباط حملة المكسيك و « حواش منتصر » .

وقسمت المديرية إلى حكمداريتين تولى مرجان قيادة

الحكمدارية الشمالية وتولى حواش قيادة الحكمدارية الجنوبية. التي كان يقع في منطقة نفوذها معظم أراضي أوغنده الحالية. وفي ٣٠ مارس سنة ١٨٨٥ انتصر المهديون بقيادة الأمير كرم الله في أمادى بالمديرية الاستوائية غربى النيل «بحر الجبل». وفي أوائل ابريل سنة ١٨٨٥ استبسل المصريون بقيادة الضابط سليمان سودان ببلدة ريمو التابعة لمركز ماكرাকা استبسالا أرغم المهديين على التراجع بلى على إخلاء «أمادى» التي كانوا قد انتصروا فيها من قبل وعلى إخلاء مديريةية بحر الغزال.

وفي ٢٤ إبريل سنة ١٨٨٥ عقد اجتماع برئاسة أمين باشا في «لادو» عاصمة المديرية تقرر فيه من باب الاحتياط نقل العاصمة إلى «وادلاى» التي تقع الآن في حدود أوغنده الحالية بين خطى عرض ٢ ، ٣ على النيل بعد خروجه من بحيرة ألبرت.

وفي ديسمبر سنة ١٨٨٥ أرسلت ثلة من الجنود إلى «ماجونجو» على ضفة بحيرة ألبرت عند مخرج النيل منها في حدود أوغنده الحالية وكان الغرض الاستعداد لجعلها عاصمة المديرية الاستوائية لو تم إخلاء وادلاى.

وفي ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٦ وصل خطاب نوبار باشا

رئيس الوزارة المصرية المؤرخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٥ والموجه إلى أمين باشا قائد جنود خط الاستواء في الاسماعيلية « غندوكرو » وقد جاء في هذا الخطاب .

« إذا رأيتم أن الأضمن لكم ولجنودكم الانسحاب والرجوع إلى مصر فالسير جون كيرك ممثل بريطانيا وسليمان زنديار يكتبان لمختلف رؤساء قبائل الزنوج الضارين في الطريق وبينلان ما في وسعهما لكي يسهلا لكما الانسحاب » .

وفي ١٣ مارس ١٨٨٦ - بعد استلام خطاب نوبار باشا ورغم الاحتلال البريطاني لمصر واستيلاء المهديين على السلطة في الخرطوم بقتل جوردون في يناير سنة ١٨٨٥ ورغم انقطاع كل مدد من مصر بوصول الباخرة « تلحوين » إلى لادو في ١٦ مارس سنة ١٨٨٣ وهي آخر باخرة مصرية وصلت من الشمال إلى المديرية الإستوائية - رغم ذلك كله قامت القوة المصرية في المديرية الإستوائية باحتلال جزيرة « تونجورو » عند مخرج النيل من بحيرة « ألبرت » وهو تقع في حدود أوغندا الحالية وتولت الباخرة المصرية « نيانزا » نقل الضابط محمد مسعود وجنوده إلى الجزيرة .

وفي أواخر سنة ١٨٨٦ أدخل أمين باشا تعديلا على تقسيم مراكز المديرية الاستوائية ففصل أراضى مركز « ماهاجي »

غرب بحيرة ألبرت في حدود الكونغو البلجيكية الحالية — مع نقطتي «تونجورو» و «مسوا» عن قسم المديرية الجنوبي وألف منها مركزاً قائماً بذاته وفوض لفيتا حسان الصيدلى المعين من قبل الحكومة المصرية إدارته وهذا المركز بالنقط التابعة لها جميعها يقع في حدود أوغنده الحالية .

وفي سنة ١٨٨٧ قام الصحفي الأمريكى هنرى ستانلى برحلة أخرى إلى منابع النيل بحجة إنقاذ أمين باشا الذى كانت سمعته العلمية قد أثارت اهتمام الدوائر الجغرافية الدولية رغم أن أمين باشا لم يطلب هذه النجدة ورغم أن الرحالة «فلكن» Felkin قد نشر فى صحيفة التيمس الصادرة فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٨٦ رسالة وردت إليه من أمين باشا تاريخها ٧ يوليو من نفس السنة ذكر فيها «إننى سعيد إذ أستطيع أن أخبركم اننى فى أمان وان المديرية فى غاية الهدوء» ورغم أن الضابط الأمريكى «شيليه لونج» قد كتب فى ٥ يناير سنة ١٨٨٧ خطاباً من نيويورك إلى الجمعية الجغرافية الخديوية بالقاهرة ذكر فيه

« كعضو شرف فى جمعيتكم أرسل إليكم مقالا عن الأدوار التى لعبت فى أفريقيا الوسطى وبدأت لعبها كرئيس أركان حرب جردون باشا حاكم عام السودان ثم لعبها ستانلى مراسل

صحيفتي «نيورك هيرالد» و «لندن تلجراف». إن آخر الأنباء تدل على أن أمين باشا يتمتع بصحة تامة وإنه بعيد عن كل خطر. إننى أكتب هذا لألفت نظر سمو الخديوى ونظر الجمعية الجغرافية فى القاهرة إلى أن بعثة ستانلى لا يمكن أن يكون لها إلا هدف واحد هو انتزاع إقليم خط الاستواء وحوض النيل الأعلى من مصر وهو الإقليم الذى قمت أنا نفسى بضمه لمصر ووقعت وثيقة الضم بدمى»

ولا شك أن «لونج» يقصد بهذه الوثيقة المعاهدة التى وقعها باسم مصر مع ملك أوغندا بعد أن قابله فى ٢١ يونيو سنة ١٨٧٤ والتى أبلغتها الحكومة المصرية إلى الدول فى ١٦ ديسمبر سنة ١٨٧٤ أى قبل إرسال خطابه بأربعة عشر عاماً. وقد نشر خطاب شيليه لونج المشار إليه فى الفقرة السابقة فى صحيفة «البوسفور إيجيپسيان» فى يوم وصول ستانلى إلى القاهرة فسأله مراسل صحيفة «ديلى نيوز» الإنجليزية عما جاء به وصدرت الصحف فى اليوم التالى وفيها هذه البرقية.

«سألت ستانلى عما إذا كان قد اطلع على الخطاب الذى نشر بشأن الغرض من بعثته فأجابنى إننى لم أطلع ولا أهتم بالاطلاع عليه... إننى أضحك من فكرة اتهامى بأن الرحلة التى أقوم بها إنما هى لحساب إنجلتره وبغرض انتزاع

أقاليم تابعة إلى مصر . وهى أقاليم لا تستحق هذا العناء كما
أننا لسنا مبعوثين من قبل إنجلترا « (١) » .

ولم يكتف شيليه لونج بإرسال خطابه إلى الجمعية
الجغرافية الخديوية بالقاهرة وبنشر مقاله فى صحيفة « البوسفور
إيجيسىان » بل لجأ إلى مجلة « لا نوفيل ريفو » التى
كانت تصدرها بباريس السيدة جوليت آدام التى اشتهرت
بدفاعها عن حقوق مصر التى كانت إنجلترا قد بدأت تنظم
الاعتداء عليها عقب عام ١٨٨٢ وبشرت له هذه المجلة مقالا
فى عددها الذى صدر بتاريخ ١٥ مارس عام ١٨٨٧ بدأه
بأن قرر « إن ضجة كبيرة قد اثيرت منذ مدة حول بعثة
جديدة يشكلها هنرى ستانلى لإتقاذ رجل أوربى هو أمين
باشا آخر ضابط فى الجيش المصرى الذى لا يزال يقاوم
ولا يزال يرفع بقوة علم الخديوى فى الأقاليم التى تمد النيل
الأعلى بالماء . . . »

إننا نرى أن من الحكمة دراسة هذا الموضوع عن كتب
لنرى أية خطط سياسية تخفيها بعثة ستانلى وهى بعثة تعمل
تحت إشراف الحكومة البريطانية المباشر وبذهبا المختلس
من الخزانة المصرية . . . إن ستانلى له هدف خفى . لن

ينكشف إلا عندما لا يتاح الوقت الكافى لإبداء أقل اعتراض «
وفى ٢٩ إبريل سنة ١٨٨٨ وصل هنرى ستانلى إلى مقر أمين
باشا عند بحيرة ألبرت وفى ٣ مايو سنة ١٨٨٨ عرض ستانلى
على أمين باشا العروض الآتية وهى : —

(أ) أن تستمر كما كنت الجندى المطيع فتعود إلى
مصر معى على أن تتقاضى أنت وجنودك مرتباتكم المتأخرة .

(ب) عرضى الثانى من قبل جلالة الملك ليوبولد ملك
البلجيكين الذى كلفنى أن أخطر بك بأنه — لكى يمنع تدهور
أقاليم خط الاستواء فى مهاوى البربرية — يبدى استعدادة لأن
يدفع لك ألفاً وخمسمائة جنيه استرلنى سنوياً وأن تعين حاكماً
برتبة جنرال بشرط أن يكون إيراد هذه الأقاليم بحيث يتيح
لحكومة الكنگو أن تباشر استغلالها .

ح — إذا كنت مقتنعاً بأن جنودك سيرفضون أن يتبعوك
إلى مصر فإنى أعرض عليك أن تذهب مع أكبر عدد ممكن
من الجنود المتعلقين بك إلى شمال شرق بحيرة فيكتوريا حيث
أمكنك من الاستقرار باسم شركة شرق أفريقيا وسنساعدك
على بناء قلعة ونترك لك سفننا والمعدات الأخرى الضرورية
وقد وردت هذه العروض باعتراف هنرى ستانلى فى

كتابه فى غياهب القارة In darkest continent .

وقد اضطر أمين باشا إلى إخلاء منطقة منابع النيل بعد أن قاوم مقاومة عنيدة ثم غادر القارة الإفريقية عن طريق زنجبار عام ١٨٩٠ مع ستانلى .

وانكشفت المحاولة الاستعمارية بالأسلوب الذى اتخذ لإنقاذ أمين باشا إذ ورد صراحة فى العرض الثالث من عروض ستانلى على أمين باشا أن يعمل الأخير باسم شركة شرق أفريقيا والمقصود بذلك هى الشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية . The Imperial British East Africa Company التى كانت قد تأسست فى نفس العام لتحقيق أغراض استعمارية مستورة بنشاط تجارى .

ويتبين مما سبق أن مصر دون غيرها من دول العالم قد انفردت بمهمة إدخال الحضارة فى أقاليم السودان طيلة سبعين عاماً أى فى المدة من ١٨٢٠ إلى ١٨٩٠ وفى أوغندة عشرين عاماً كما يتبين أن مصر ظلت ثابتة القدم فى جنوب السودان وبتعبير أدق فى المديرية الاستوائية حتى بعد بدء الثورة المهدية فى أغسطس سنة ١٨٨١ بهزيمة الحملة التى جردها رؤوف باشا حاكم عام السودان للقبض على محمد أحمد المهدي فى جزيرة « أبا » وحتى بعد بدء الثورة العراقية فى سبتمبر ١٨٨١ وحتى بعد الاحتلال البريطانى لمصر فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢

وأخيراً حتى بعد قتل جوردون وسقوط الخرطوم في ٢٥ يناير ١٨٨٥ وإقامة الحكم المهدي ثم حكم التعايشة بعد ذلك .
وتبين أن ما كان يسمى جنوب السودان إلى أن اضطرت مصر إلى إخلائه عام ١٨٩٠ كان يشمل معظم حدود أوغندة الحالية فركز « دوفيليه » على ضفة النيل الغربية ومركز « فويرا » ومركز « فاديك » شرق النيل ومركز « ماجنجو » عند مخرج النيل من بحيرة ألبرت ، هذه المراكز الأربعة كانت من مراكز المديرية الاستوائية طبقاً للتقسيم الإداري الذي نظمه أمين باشا آخر حاكم لمصر في المديرية الاستوائية والمراكز الأربعة تقع الآن في حدود أوغندة و « وادلاي » التي تقع على ضفة النيل الشرقية اتخذت عاصمة للمديرية الاستوائية بعد تهديد المهديين « للادو » عاصمة هذه المديرية وظلت « وادلاي » مقر الحكم المصري إلى أن تم إخلاء جنوب السودان ، و « وادلاي » تقع الآن في حدود أوغندة .

* * *

فلما عاد الجيش المصري عام ١٨٩٨ إلى السودان سحب معه بعض الزعماء « الختميين » الذين كانوا قد فروا أمام اضطهاد « الأنصار » لهم وكان بين المصريين والإنجليز من من جانب وبين « الأنصار » دم « جوردون » وبين « الختميين »

من جانب ونفس « الأنصار » دم العدد الكبير من « الختميين » الذى اغتيل ونكل به ونهب ماله وسبيت نساؤه طيلة الأعوام الأربعة عشر التى استأثر أثناءها المهديون وأنصارهم بحكم السودان .

وكان من الطبيعى أن تستعين السلطات المصرية الإنجليزية بالختمين على إقرار النظام فى السودان عقب استعادته ولمع نجم الطريقة « الختمية » وأصبحت لرؤساء الختميين مكانة مرموقة شبه رسمية فى مقر الحكم بالسودان وظلوا إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى يتصدرون حفلات الحاكم العام فى سرايه بالخرطوم .

وعانى « الأنصار » عقب معركة أم درمان فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ التى منى الأنصار فيها بهزيمة ساحقة وعقب قتل الخليفة التعايشى فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٩٩ بعد أن اعتصم مع أنصاره نحو عام فى كردفان متحدياً سلطة الحكومة الشرعية فى الخرطوم . عانى الأنصار عقب ذلك نوعاً من الاضطهاد الذى أذاقوه من قبل طيلة أربعة عشر عاماً للختمين . وزال ما كان لهم من نفوذ واسترد « الختميون » فى حياة السودان العامة الصفوف الأولى التى كان « الأنصار » قد اغتصبوها منهم .

وبقى « الأنصار » وخاصة أسرة محمد أحمد المهدي وخليفته عبد الله التعايشى مشردين بين السجون وأتفه الأعمال

والوظائف بينما كان « الختميون » يتصدرون الصفوف وعاش « الأنصار » على ذكرى السلطان القديم الذى ظل لهم مدة أربعة عشر عاماً حتى استعادت مصر السودان .
وانقضت أربعة عشر عاماً أخرى .

وأقبل عام ١٩١٢ قبيل إعلان الحرب العالمية الأولى فكلف مأمور مركز « كوستى » الواقع على مقربة من جزيرة « أبا » التى بدأ محمد أحمد المهدي حركة العصيان ضد مصر فيها بأن يستدعى ابن محمد أحمد المهدي لمقابلة الحاكم العام فى الخرطوم .

وقرأ الناس بعد ذلك ببضعة شهور أى عند بدء الحرب العالمية الأولى فتوى من « زعيم الأنصار » بأن محاربة الأتراك جائزة شرعاً لأنهم تحالفوا مع الألمان على محاربة الأسرة الهاشمية والمسلمين فى بلاد العرب وقيل إن زعيم الختميين قد رفض إعطاء مثل هذه الفتوى .

وبدأ الإنجليز منذ ذلك الوقت أى منذ أوائل الحرب العالمية الأولى يحققون نوعاً من « التوازن » بين قوى دينك الزعيمين الدينيين المسلمين .

ولما قامت مصر بنهضتها الوطنية عام ١٩١٩ مطالبة باستقلال وادى النيل وأعلن الدستور المصرى وتبين أهل

مديريات شمال السودان ما لاقاه المصريون من عنف في
سريان هذا الدستور على مصر والسودان معاً تكون وعى يؤاخي
وعى مصر وبرزت إلى الوجود في شمال السودان جمعية « اللواء
الأبيض »

ولم تكد تقع حادثة مقتل السردار ويرغم الجيش المصرى
على ترك السودان حتى نظم طلبة الكلية الحربية في الخرطوم
مظاهرة نادوا فيها بحياة ملك مصر والسودان واشتركت الأورطة
السودانية التي كانت منتدبة من « ملاكال » في مظاهرات
الخرطوم المؤاخية لمصر فتبينت السياسة الإنجليزية أنها يجب
أن تتخذ خطوتين للفت في عضد هذا الوعى القومى السودانى
الجديد .

أولاهما - تحويل اهتمام أهل شمال السودان بهذا المصير
السياسى المشترك بين مصر والسودان إلى شأن آخر .

ثانيهما - فصل شمال السودان عن جنوبه احتياطاً لعدم
نجاحها في الخطوة الأولى .

وكان طبيعياً بالنسبة للخطوة الأولى أن تزيد في عوامل
الفرقة بين « الأنصار » الذين رأيناهم كانوا قد طال حرمانهم
من كل مزايا النفوذ والسلطان منذ عودة المصريين إلى السودان
عام ١٨٩٨ وبين « الختميين » الذين كانوا قد استردوا نفوذهم

السابق على قيام محمد أحمد المهدي بحركته وتصدروا حياة السودان العامة .

وأخذ نجم « الأنصار » يلمع ، وبدأ السودانيون يتناقلون أخبار آلاف الأفدنة التي منحت حكومة السودان لهم حق الانتفاع بها دون ملكية الرقبة التي ظلت في يد تلك الحكومة تسحبها متى شاءت وأحس « الختميون » بما يبيت لهم فزاد ذلك من تعلقهم بفكرة الوحدة مع مصر .

وفي عام ١٩٣٦ وبعد توقيع معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا توقع الجانب الإنجليزى أن تطالب مصر بحقها فى الاشتراك اشتراكاً فعلياً فى إعداد السودان لحياة ديمقراطية أفضل من حياته الراهنة . واستعد ذلك الجانب فعلاً لإخلاء بعض المراكز الرئيسية فى حكومة السودان من شاغليها البريطانيين لكى يحل المصريون محلهم فلما لم يحدث ذلك - مع بالغ الأسف - أسرع الجانب الإنجليزى إلى التقدم فى خطوته الأولى بإغراء بعض السودانين من الأنصار أو من هم على شاكلتهم بهذه الوظائف .

وفي عام ١٩٣٨ أحس الجليل الحديد من السودانين بالمحاولة الإنجليزية فأسسوا الهيئة التى أطلقوا عليها « اسم مؤتمر الخريجين » وعقدت أول دورة لها فى أوائل ذلك العام . وفى

٢ أبريل عام ١٩٤٢ قدم « مؤتمر الخريجين » مذكرة إلى الحاكم العام طالبوا فيها بحق السودان في تقرير مصيره وفي عام ١٩٤٣ أصدر مؤتمر الخريجين قراراً أعلن فيه رغبة السودانيون في قيام حكومة سودانية ديمقراطية في اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى .

* * *

« فرق تسد كان شعار الدولة الرومانية القديمة فليكن شعارنا »

لورد إيلفنستون

وأُسِّرت السياسة الاستعمارية لدفع المعسكر الآخر إلى العمل إذ أنشأت حزب الأمة عام ١٩٤٥ وأصدر هذا الحزب صحيفة تحمل اسمه وبدأ طابع الأنصار - أى أنصار الحركة المهدية القديمة وأعضاء أسرة المهدي وأصهارها - بارزاً في تكوين هذا الحزب وتمويله وإن كانت لباقية المحاولة الاستعمارية قد شاءت أن يكون غرض الحزب الظاهري المطالبة باستقلال السودان !
وأمنعت السياسة الاستعمارية في لباقها فنشر السكرتير الإداري في شهر إبريل سنة ١٩٤٥ بياناً في الصحف حذر فيه موظفي الحكومة الذين يعملون كأعضاء في حزب أو هيئة سياسية من الاشتراك في أى عمل يخط من سلطان هذه الحكومة

أو يهاجم كيان الحكم الثنائي في السودان أو الحكومة البريطانية أو الحكومة المصرية وإلا اضطر بدون أى تحذير آخر لمنع أولئك الموظفين من العمل فى أية لجنة أو القيام بدور هام فى تلك الأحزاب أو الهيئات . ولكن السودانين كانوا يرون بأعينهم ويكادون يلمسون بأيديهم أن وظائف الحكومة والشركات البريطانية والأراضى الزراعية ورخص آلات رفع مياه الرى لهذه الأراضى كادت تصبح وقفاً على أعضاء حزب الأمة وأنصاره والموالين له ممن يطالبون باستقلال السودان ! وأما ثانى الخطوتين اللتين كانت قد اعترمت السياسة الإنجليزية الإقدام عليهما عقب بدء السودانين الشماليين فى مؤاخاة وعى مصر القومى وهى فصل جنوب السودان عن شماله فقد تطورت بالشكل الآتى .

(أ) فى عام ١٨٨٧ أرسل هنرى استانلى بحجة إنقاذ أمين باشا الذى عينته مصر حاكماً للمديرية الاستوائية وظل يشغل هذا المنصب سبع سنوات بعد الاحتلال البريطانى .

(ب) فى عام ١٨٨٨ تأسست الشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية مستورة بأغراض تجارية .

(ح) فى أول يوليو سنة ١٨٩٠ عقدت بين بريطانيا

وألمانيا الاتفاقية التي اعترفت بها الثانية للأولى بنفوذها في منطقة منابع النيل

(د) في ٢٩ مايو سنة ١٨٩٤ عقدت معاهدة بين ملك أوغندا وممثل الشركة الإمبراطورية وضعت بها أوغندا تحت الحماية الإنجليزية ولم تشمل هذه الحماية ولايات « أونيوورو » و « تورو » و « أنكول » وهي بقية أراضي أوغندا .

(هـ) في يونيو سنة ١٨٩٥ تنازلت الشركة للحكومة البريطانية عن حقوقها !

(و) في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ عقدت اتفاقية الحكم الثنائي بين مصر وبريطانيا التي نصت مادتها الأولى على أن : « كلمة السودان في هذه الاتفاقية تعني كل الأراضي الواقعة جنوب خط عرض ٢٢ درجة شمال خط الاستواء وهي الأراضي التي :

١ - لم يخلها الجيش المصري قط منذ عام ١٨٨٢

٢ - التي كانت قبل الثورة الأخيرة في السودان تديرها حكومة سمو الخديوى ففقدتها مصر مؤقتاً ثم استعادتها حكومة جلالة ملك بريطانيا والحكومة المصرية بالاتفاق معاً .

٣ - التي قد تحتلها الحكومتان بالاتفاق معاً »

ويبدو من هذا النص أن حدود السودان الجنوبية لم

تعين بوضوح مما يقطع بأن الحكومة البريطانية حتى عام ١٨٩٩ ورغم المعاهدات الصورية التي عقدت بين الشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية وملك أوغندا ثم بين هذه الشركة والحكومة البريطانية كانت تحس بأن وجودها في المديرية الاستوائية يعوزه السند الشرعى ولذا تركت حدود السودان الجنوبية معاملة مبهمه لكي تكون لها حرية العمل في المستقبل تبعاً لتطورات الحوادث

وفي يونيو سنة ١٨٩٩ قامت ثورة في أوغندا فاستعانت الحكومة البريطانية بفرقة بنادق أفريقيا الشرقية وبقوات من الهند لقمعها ثم عينت مندوباً سامياً هوسير هارى جونستون في أول يوليو من ذلك العام وطبقت السياسة الاستعمارية للمرة الأولى في أفريقيا نظام « الحكم غير المباشر » وفرض هذا النظام على بقية أراضى أوغنده ففرض على تورو في عام ١٩٠٠ وعلى أنكول في عام ١٩٠١ بواسطة اتفاقات صورية مع أمرائها . (ز) وقد استغلت الحكمة البريطانية عقب استعادة السودان ضعف الحكومة المصرية التي لم تثر نكبة اغتصاب الجزء الجنوبي من المديرية الاستوائية الذي كان — إلى عام ١٨٩٠ — يضم كما رأينا مراكز « دوفيليه » و « فاديلك » و « فويرا » و « ماجنجو » بل كان يضم « واد لاسى »

العاصمة الأخيرة لتلك المديرية . استغلت الحكومة البريطانية ذلك الضعف لتثبت قدمها في الجزء الجنوبي للمديرية الاستوائية فلما عاد الجيش المصرى إلى السودان عام ١٨٩٩ اقتصر في توزيع وحداته على الجزء الشمالى من المديرية الاستوائية وكاد الاغتصاب يصبح حقيقة مادية بتوالى الزمن .

(ح) فى عام ١٩٣٧ بعد عودة الجيش المصرى إلى السودان تنفذاً لمعاهدة الصداقة والتحالف مع بريطانيا لم يمكن هذا الجيش من دخول جنوب السودان بل اقتصر على البقاء فى الخرطوم .

(ط) عدت حكومة السودان مديريات جنوب السودان الثلاث وهى المديرية الاستوائية وبحر الغزال وأعلى النيل منطقة مغلقة closed area وبررت ذلك باعتبارات صحية . ومنعت حتى السودانين من دخولها إلا بإذن خاص .

(ى) استعانت حكومة السودان بالمبشرين المسيحيين الذين انتشروا فى جنوب السودان انتشاراً هائلاً عقب إخلاء الجيش المصرى له عام ١٩٢٤ على اذاعة الرعب فى قلوب الجنوبيين من الشماليين فكل شمالى « جلاب » وهو الاسم الذى كان يطلق على النخاسين أيام تجارة الرقيق . وجنوب السودان يتكون من قبائل عديدة لكل منها لغتها الخاصة ولذلك عمدت السياسة

الاستعمارية لتحقيق فصل الجنوب عن الشمال إلى طبع كتب بالإنجليزية في لغات تلك القبائل وطباع أبنائها. وكل مبشر يكلف بالعمل في منطقة معينة عليه أن يتعلم لغة القبيلة التي تسكن هذه المنطقة ومعظم هؤلاء المبشرين يتولون تدريب أتباعهم من السودانيين الجنوبيين على مهنة معينة كالنجارة أو قيادة السيارات لكي يمكن هؤلاء الأتباع الارتزاق من مزاوله هذه المهنة .

ولقد تبينت بنفسى أثناء إقامتى فى (جوبا) عاصمة المديرية الاستوائية ان الجنوبيين من مختلف القبائل التي تسكن هذه المديرية والتي يبلغ عددها عشرة على الأقل هى قبيلة «البارى» فى جوبا وتوريت و«الشولى» فى نيمولى — الابراهيمية — و «الزاندى» فى يامبيو وكلها من القبائل التي لا تزال تعيش فى نفس المناطق التي كانت تعيش فيها منذ تورى أمين باشا إدارة هذه المديرية حتى عام ١٨٩٠ وقد أشير إليها فى كتاب (الحقيقة حول أمين باشا) الذى وضعه فيتا أفندى حسان كما ورد فى هذا البحث من قبل. وإلى جانب هذه القبائل الرئيسية توجد قبائل فرعية مثل قبيلة (الديد نجا) فى كابوتا شرق النيل «بحر الجبل» وقبيلة (الفيجولو) فى لوكا وقبيلة (الأبوكايا) فى يى وقبيلة (المورو) فى ماريدى وكلها غرب النيل «بحر الجبل» وقبيلة (الموندارى) فى تريكاكا

على ضفة النيل « بحر الجبل » الغربية تبينت أن الجنوبيين لا يقتصرون على النفور من الشماليين الذين يعملون في بعض الشركات كشركة الخطوط الجوية السودانية أو الذين يعملون في إدارات حكومة السودان المختلفة بل إنهم يكادون يقاطعونهم. بتحريض من البريطانيين فنأدى جوبا الذى أسسه بعض المعلمين من الشماليين الذين اجتمعوا في جوبا لا يتردد عليه أحد من الجنوبيين إطلاقاً رغم أنه يقع في قلب عاصمة المديرية الاستوائية وقد تحققت من أن محاولات عديدة بذلت لإقناع الجنوبيين المعلمين بالانضمام للنأدى ولكن دون جدوى .

وقد ذكر لى أحد مهندسى الرى المصريين أن أحد الجنوبيين المعلمين تحرش به توهماً من هذا الجنوبي بأن المهندس المصرى قد رمقه بنظرة احتقار كما أكد لى هذا المهندس بأنه تحدث إلى عديدين من هؤلاء الجنوبيين فتبين انهم يتوهمون — بايحاء من البريطانيين — بأن كل شألى إنما تنطوى نفسه على الرغبة فى استعباد الجنوبيين وفى إعادة عهد النخاسة بشكل أو بآخر !

(ك) فى عام ١٩٤٤ أنشأت حكومة السودان مجلساً استشارياً لشمال السودان وحده أى للمديرية الشمالية والخرطوم وكسلا والنيل الأزرق وكردفان ودارفور دون مديريات جنوب

السودان وهى المديرية الاستوائية وبحر الغزال وأعلى النيل وكان المجلس مكوناً من ثمانية عشر عضواً يمثلون مجالس المديريات وعشرة أعضاء عينهم الحاكم العام وعضوى شرف هما السيد على المرغنى باشا رئيس الطريقة « الختمية » والسيد عبد الرحمن المهدي باشا رئيس « الأنصار » .

وكان قصر تمثيل المجلس الاستشارى لشمال السودان نوعاً من جس النبض لما اعتزمت السياسة الإنجليزية وتبين فى المراحل السابقة من فصل هذا الجزء الجنوبى وضمه إلى أوغندة بعد أن فصلت أوغندة عن المديرية الاستوائية .

* * *

طالب بالخبز فاعطيناه حق التصويت

لورد هيللى

وينص ما يسمى دستور سنة ١٩٤٨ على إنشاء « مجلس تنفيذى » مكون من عدد يتراوح بين ١٢ ، ١٨ عضواً نصفهم على الأقل من السودانيين ويضم « زعيم الجمعية التشريعية » والوزراء وبعض المستشارين الذين لا يتولون وزارات معينة ووكلاء الوزارات كما ينص هذا الدستور على إنشاء « الجمعية التشريعية » التى تضم عشرة أعضاء منتخبين بطريق الانتخاب المباشر يمثلون المدن السبع الكبرى فى السودان واثنين وأربعين عضواً

منتخبين بطريقة الانتخاب غير المباشر يمثلون باقى أنحاء السودان الشمالى . وثلاثة عشر عضواً يمثلون مجالس المديريات الجنوبية الثلاث . وعشرة أعضاء يعينهم الحاكم العام . وأعضاء « المجلس التنفيذى » إذا لم يكونوا قد انتخبوا أو عينوا فى الجمعية .

والمجلس التنفيذى فى السودان—حتى اكتوبر ١٩٥١—مكون من وزير الزراعة ووزير الصحة ووزير المعارف وهم سودانيون ومن مستشار بلا وزارة سودانى واثنين من المستشارين البريطانيين والسكرتير الإدارى والسكرتير القضائى والسكرتير المالى وهم بريطانيون ومن قائد الأمن ومن اثنين من وكلاء الوزارات السودانيين .

ورغم كثرة عدد القبائل فى مديريات جنوب السودان الثلاث فإن الجمعية التشريعية لا تضم إلا ممثلى ثلاث قبائل فقط فمن بين الخمسة الذين يمثلون المديرية الاستوائية ممثل لقبيلة « البارى » وممثل لقبيلة « المورو » ومن بين الأربعة الذين يمثلون مديرية أعالى النيل ممثل لقبيلة « الدنكا » ومن بين الأربعة الذين يمثلون مديرية بحر الغزال ممثل آخر لقبيلة « الدنكا » وباقى الثلاثة عشر ممثلاً لجنوب السودان موظفون سابقون فى حكومة السودان عينوا تعييناً بواسطة المديرين البريطانيين

الذين يرأسون مجالس المديریات .

وقد تبينت الهيئات الوطنية السودانية هذه اللعبة الاستعمارية التي قصد بها صرف السودانين عن التفكير في مصيرهم السياسى المشترك مع إخوانهم المصريين فقاطعت انتخابات هذه الجمعية التشريعية التي تمخضت عن شبه لجنة من لجان حزب الأمة الذى يدعوا ظاهراً إلى استقلال السودان أى يعارض فكرة الوحدة مع مصر .

وقد وفقت السياسة الاستعمارية فعلاً في صرف تفكير نفر من السودانين عن الحقائق المادية التي يكاد وهجها يعمى البصر ، صرفتهم عن التفكير في أن السودان الذى يبلغ عدد سكانه نحو ثمانية ملايين لا تزيد إيراداته السنوية عن عشرة ملايين من الجنيهات وفي أن هذه الإيرادات كانت عندما أرغم الجيش المصرى إرغاماً عام ١٩٢٤ على ترك السودان أربعة ملايين ومائتين وثمانية وتسعين ألفاً وثمانمائة وستة وخمسين جنيهاً فلم تزد عام ١٩٣٩ إلا إلى خمسة ملايين وثلاثة وخمسين ألفاً وسبعمائة وخمسة وستين جنيهاً ولم تتعد عام ١٩٤٧ - وهو آخر بيان رسمى منشور - عشرة ملايين ومائة وواحد وأربعين ألفاً وأربعمائة وخمسة وتسعين جنيهاً . والمصروفات في ميزانية السودان تنقص بقدر يسير عن الإيرادات فلا ينال السودانى

من ميزانية حكومته هناك أكثر من جنيه واحد في العام مما يدل على إهمال استغلال الثروة القومية إهمالاً شائئاً وبالتالي إهمال مرافق الإصلاح العامة بسبب عجز الإيرادات عن الاضطلاع بما تتطلبه مشروعات الإصلاح من نفقات ويكتفى لتبيين الفرق بين مصر والسودان في هذا الشأن أن نذكر أن الميزانية المصرية تزيد عن مائتي مليون من الجنيهات وقد تضاعفت هذه الميزانية خمس مرات عما كانت عليه قبيل عام ١٩٣٩ تنفق على عشرين مليوناً من المصريين أى أن نصيب المصرى من هذه الميزانية لا يقل عن عشرة أضعاف نصيب أخيه السودانى .

ولما أجمعت الهيئات الوطنية السودانية على مقاطعة الجمعية التشريعية عادت السياسة الاستعمارية تضيف لوناً جديداً على هذه الأسطورة فأبدت استعدادها لتعديل الدستور تعديلاً من شأنه تلاقي اعتراضات المعارضين لكى تستدرج من تستطيع من استدراجه للاشتراك فى نظام الحكم القائم .

وفى أكتوبر سنة ١٩٥١ قضت مصر على هذه المناورات باصدار القانون الذى نصت المادة الأولى منه على أن « يلغى القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٦ بالموافقة على معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا الموقعة بلندن فى ٢٦ أغسطس

سنة ١٩٣٦ ومن ثم ينتهى العمل بأحكام تلك المعاهدة والاتفاق المرافق لها الخاص بالإعفاءات والميزات التى تتمتع بها البريطانية الموجودة فى المملكة المصرية وينتهى العمل كذلك بأحكام اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان » وبإصدار القانون الذى نصت المادة الأولى منه على أن « يكون للسودان دستور خاص تعده جمعية تأسيسية تمثل أهالى السودان وينفذ بعد أن يصدق عليه الملك ويصدره » والذى تنص المادة الرابعة منه على أنه « يحتفظ بالشئون الخارجية وشئون الدفاع والجيش والنقد فيتولاها الملك فى جميع أرجاء البلاد » وبإصدار القانون الذى تنص المادة الثانية منه على أن « الملك يلقب بملك مصر والسودان » . أما الاستعمار فى كينيا فقد بدأ بشراء الحكومة البريطانية للشركة الإمبراطورية لشرق إفريقيا البريطانية وحلول تلك الحكومة محل الشركة فى « الحقوق » ! التى اغتصبها من ملوك وزعماء الأقطار النيلية . فى عام ١٨٩٥ أعلنت الحكومة البريطانية حمايتها على المنطقة التى تقع بين ممباسا - على شاطئ المحيط الهندى - وحدود أوغندة .

وقد بدأ المستعمر البريطانى العتيد لورد ديلاير منذ ذلك العهد يضع أسس الاستعمار فى هذا القطر النيلي الذى

رأى أن جوه المعتدل يصلح لإقامة الأوربي الأبيض إقامة صحية لا تحد من نشاطه . كما رأى أن هذا القطر الواسع المساحة لا يضم إلا قلة في عدد السكان تتيح للمستعمرين البيض أن يتحكموا في اقتصاده . وقد خلفه هناك « سير تشارلز أيليوت » فنفذ برنامجه الاستعماري منذ عام ١٩٠٠ . وأذاع أن أراضي كينيا الزراعية المعروفة باسم « الأراضي العالية » Highlands إنما تعد « بلاد الرجل الأبيض » ومد خط سكة حديدية طوله تسعمائة كيلو متر وأكد أن كينيا ستسد حاجة المستعمرين البيض دون الالتجاء إلى قروض خارجية .

وانتقلت شؤون الحماية على كينيا إلى وزارة المستعمرات البريطانية . وفي عام ١٩٠٨ تدفقت جموع المستعمرين وفتحت الأراضي الواقعة شمال نيروبي إلى جبل كينيا للاستعمار بمد خط سكة حديدية وأرغمت قبيلة « المازي » على هجر أرض وطنها لهؤلاء المستعمرين

وقد حاول ديلاير أن يحصل من الحكومة البريطانية لكينيا - عندما بلغ عدد المستعمرين الأوربيين فيها نحو ستة آلاف - على الحق في الحكم الذاتي لصالح أولئك المستعمرين ولكن اشتعال نار الحرب العالمية الأولى عاق تحقيق ذلك الكلام وفي عام ١٩٢٠ أصبحت كينيا مستعمرة تابعة للتاج البريطاني

وزالت صفة « الحماية » عنها .

أما القطر النيلى الثالث من أقطار منابع النيل وهو تنجانيقا فقد بدأت قصة استعماره فى عام ١٨٨٤ بإنشاء الدكتور كارل بيزرز لشركة الاستعمار الألمانى وبإسراعه فى عقد ست معاهدات مع رؤساء القبائل الإفريقية على شاطئ القارة الشرقى . وفى فبراير عام ١٨٨٥ حصل على ضمان من إمبراطور ألمانيا بحماية « الحقوق » ! التى تنازل أولئك الرؤساء الإفريقيون إلى الشركة عنها . وقد لقي الاستعمار الألمانى مقاومة عنيفة من سلطان زنبار المسلم وسارعت الشركة الألمانية إلى استخدام العنف بل التوحش فى إخضاع العرب الذين تعرضوا لها والذين كانوا يتسيطرون على طريق القوافل بين الشاطئ الشرقى وبحيرة تنجانيقا واستعانت الشركة بقوة عسكرية قدمت من ألمانيا للتغلب على مقاومة العرب وزعماء القبائل النيلية .

وفى أول يناير ١٨٩١ فرضت ألمانيا حمايتها على تنجانيقا وعينت « حاكماً إمبراطورياً » .

واتسم الاستعمار الألمانى فى تنجانيقا بطابع دموى يفسره بعض الباحثين فى شئون هذه الأقطار النيلية بأنه يعود إلى افتقار الألمان إلى الخبرة فى الاستعمار ! (١)

واشتعلت بين عامي ١٩٠٥ ، ١٩٠٦ نار ثورة لم تكن تتوقعها سلطات الاستعمار الألمانية من قبائل جنوب تنجانيقا فقابلتها هذه السلطات كعاداتها بوسائل القمع الوحشية التي تركت أثراً في نفوس النيليين من أهل المنطقة ولكنها دفعت الحكومة الألمانية في نفس الوقت إلى تعديل نظام إدارة البلاد وأنشأت الحكومة الألمانية وزارة خاصة في برلين وفصلت بين السلطات المدنية والسلطات العسكرية في القطر المحمي وحاولت أن تحكم هذا القطر بنفر قليل من الموظفين الألمان. وفي عام ١٩٠٤ مدت خطاً حديدياً وصل إلى « موشي » في منطقة جبال كلمنجارو وفي عام ١٩١٤ مدت خطاً حديدياً آخر يصل بين دار السلام وكيجومو على بحيرة تنجانيقا وكانت تهدف من مد هذه السكك الحديدية إلى حث المستعمرين الألمان على استغلال هذا القطر. وقد وصلت قيمة الصادرات إلى أربعة ملايين من الجنيهات قبيل الحرب العالمية الأولى .

وفوضت معاهدة فرساي لبريطانيا إدارة تنجانيقا طبقاً لشروط الانتداب التي وضعتها عصبة الأمم حتى عام ١٩٤٦ . ومنذ ذلك التاريخ وضعت تحت وصاية الأمم المتحدة . وقد تلقت عام ١٩٤٨ أول زيارة من اللجنة المكلفة بمراقبة هذا النظام الدولي من قبل هيئة الأمم المتحدة .

صیحات نیلیة حرة

من الثابت أن أول صیحة فی سبیل تحریر وادی النيل من التدخل الأجنبي قد ارتفعت فی شمال الوادی وعلى وجه التحديد فی مصر إذ تقدم بعض المصریین لزعامه الرأى العام فی أوائل عهد الخدیوى توفیق وألفوا حزباً سرىاً سموه الحزب الوطنى بزعامه محمد سلطان وأحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وسليمان أباطة وحسن الشریعى وأصدروا منشوراً فی ٤ نوفمبر عام ١٨٧٩ تضمن برنامج ذلك الحزب أشار معظمه إلى كارثة الديون التى مكنت الأجانب من الاعتداء على سيادة مصر (١)

وقد تطور هذا البرنامج فيما بعد عندما تبين زعماء الشعب المصرى أن الأيدى الأجنبية تعمل على أن تحكم مصر حكماً استبدادياً فأعلن على العالم برنامجه الشامل الذى تضمن

١ - المحافظة على استقلال مصر ومقاومة من يحاول إخضاعها

(١) - أحمد عرابى - « كشف الستار عن سر الأسرار - فى النهضة

المصرية المشهورة بالنورة العرابية » ص ١٤٩

ويجعلها ولاية عثمانية .

٢ - الولاء للخديوى وتأييد سلطته ما دامت أحكامه جارية وفقاً للعدل والقانون والإلحاح عليه بتنفيذ ما وعد به من إعطاء الشعب حكماً نيابياً

٣ - إخضاع الأجانب لما يخضع له المصريون ومساواتهم بالمصريين فى اقتضاء الضرائب منهم

٤ - زيادة عدد الجيش للدفاع عن سيادة مصر إلى أن تبدأ الحياة النيابية باعتبار الجيش حارساً للشعب الذى لا سلاح له

٥ - جميع المصريين سواء فى الحقوق مهما اختلفت عقائدهم الدينية .

٦ - إصلاح البلاد مادياً وأدبياً ونشر التعليم وتوفير الحرية السياسية لكافة المصريين وهى الحرية التى يعتبرها الحزب حياة الأمة (١) .

والنظرة الأولى لهذا البرنامج يتبين منها أنه تضمن الخطوط الرئيسية الخارجية لمطالب الشعب المصرى فى الحياة الحرة الكريمة وأنه امتاز برجولة التعهد بمقاومة كل محاولة للاعتداء على سيادة

(١) Blunt : Secret History of the English Occupation P. 556

وقد نشر البرنامج بعدد جريدة « التيمس » الذى صدر فى أول يناير عام ١٨٨٢

مصر بالقوة . وقد أثبت هذا الحزب فعلا فيما بعد أنه قاوم
الجيوش الإنجليزية التي غزت مصر عام ١٨٨٢ المقاومة
العسكرية التي كانت في طاقة البلاد وقتئذ .

ولما بدأ مصطفى كامل حركته الخالدة للمطالبة بحقوق
الشعب المصرى دعا إلى تمجيد المصرية ورفع شأنها فكان أول
زعيم نبلى فهم نفسية الجماهير فسمّا بها وقضى على الرجعية التي
كانت سائدة والتي كانت تتصل من الانتساب إلى المصرية
بجملته المأثورة، لو لم أكن مصرى لوددت أن أكون مصرى (١) .
وكانت عقليته السياسية وهضمه لأساليب الاستعمار من
النضوج بحيث قال « باطلا يعتقد البسطاء أن الإنجليز مع
كونهم ينوون البقاء في مصر يقبلون منح أهلها حكومة
دستورية . لأنه لو جاز ذلك لكان وجودهم في هذه الديار
يوم يؤسس فيها مجلس نيابى تام السلطة واسع السلطان نافذ
الكلمة لغواً ولأصبحوا في هذا القطر لاعبين .

وقامت مصر بعد ذلك بثورتها عقب حرب ١٩١٤-١٩١٨
بزعامة المغفور له سعد زغلول باشا وقد حلل بعض المؤرخين
الأوربيين المتوفرين على دراسة تاريخ الشرق الأدنى هذه الثورة
فقرروا أنها اعتمدت على شخصية الزعيم المصرى القوية

(١) خطبته بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧

وأن برنامجها كان يتخلص في شيئين : الاستقلال وحكم الشعب بواسطة الشعب^(١).

ومركز وادى النيل الجغرافى يجعل له أهمية دولية خاصة فى هذا الجزء من العالم لا تزال تتصارع القوى الدولية للسيطرة على أهم طرق المواصلات فى العالم لكى تفوز بالسيادة على هذا العالم .

وفى هذا الجزء يبدو جلياً كيف يقف نظامان من أنظمة التحكم فى العالم . أحدهما نظام الاستعمار الأنجلو سكسونى القائم على التوسع التجارى والصناعى لصالح الرأسمالية تؤيده دعاية سداها المبادئ المسيحية والديمقراطية ويوحى به الوهم بأرستقراطية الجنس « النورديكى » الذى يقطن شمال أوربا . والآخر نظام الاتحاد السوفيتى القائم على التوسع الاشتراكى الذى يوحى به مثل أعلى جديد يعلن المساواة بين جميع الأجناس والشعوب مساواة مطلقة كما يعلن استعداداه لمساعدة جميع الشعوب الراغبة فى التحرر .

وأمام هذا الجهد الذى يبذله النظامان اللذان لم تطمئن الشعوب النيلية إلى كليهما تجد هذه الشعوب نفسها فى عراك

مع خصمها الخارجى وهو الاستعمار الذى يرى من مصلحته أن تبقى هذه الشعوب فى حالة ضعف وفى مستوى منخفض من الحياة وهى حالة يعرف الخصم المستعمر كيف يستغلها . وقد ورثت الشعوب النيلية من الماضى تركة مثقلة بالفقر وقل التعاون بينها وهذه النقائص تنبئ بخلق جيل من الزعماء المثقفين الذين يحسون بها ويتعهدون بالقضاء عليها^(١) .

ومما لا شك فيه أن التوسع الاستعمارى الأنجلو سكسونى قد أساء إلى وادى النيل كما أساء إلى غيره من بلاد الشرق الأدنى فقد بلغ من أثره السياسة الاستعمارية أثرة وحشية فى استغلال هذه البلاد وفى اختيار حكومات عاجزة لا ضمير لها من أبنائها لحكمها أن تسببت فى خراب بعضها وتعريض كافة بلاد الشرق الأدنى للخراب^(٢) . وقد تبين فعلا بعد الحرب العظمى الأولى أن الغرب قد نجح فى غزو الشرق مرة أخرى كما فعل أثناء الحروب الصليبية^(٣) مع فرق أن الغزو الحديث كان لأغراض استعمارية اقتصادية . ويكفى أن أذكر هنا أن مصر — وهى دولة مزدهمة بالسكان وغنية —

(١) المرجع السابق صحيفة ٦

(٢) Morgan Shuster : The Strangling of Persia. (٢)

(٣) Hans Kohn. — المرجع السابق الإشارة إليه — ص ٦٨

قد احتلت من عام ١٨٨٢ وظلت تعاني ذلك الاحتلال إلى يوم ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ عند ما أعلنت الحكومة الإنجليزية تصريحها المعروف باستقلال مصر بل إلى ما بعد ذلك بأعوام . وفى خلال تلك الأعوام الأربعين لم تتورع الإدارة الأجنبية التى كانت وحدها مسئولة عن وزارة المعارف العمومية عن ترك الأمية متفشية فقد أثبت إحصاء عام ١٩٣٧ أن نسبة اللذين يستطيعون القراءة والكتابة من الذكور عشرين فى المائة من مجموع عدد السكان ونسبة اللاتى يستطيعنها من الإناث ٤ فى المائة . وقد اعترف اللورد كرومر فى تقريره عن مصر عام ١٩٠٥ بأن من يقابل بين صناعة مصر الآن وبين ما كانت عليه منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة مضت - أى قبل الاحتلال البريطانى - يجد أن الأمكنة التى كانت مزدحمة بصناع الغزل والحياكة والصناعة والحجم والأحذية والصياغة والعطارة والأدوات النحاسية والسروج والمناخل والأقفال قد قلت أو اندثرت وقامت على أطلالها مقاه وحوانيت ملأى بالبضائع الأوربية .

ولا شك أن سياسة التوسع الاستعمارى فى مصر قد قضت بالألا تكون فى مصر زراعة غنية إلا زراعة القطن ولكن المصريين لا يجنون منها ربحاً صناعياً منذ أغلقت مغازهم

لأن رجال الاحتلال رأوا وجوب إغلاقها لكي تربح مغازل لانكشير ومانشستر وليفربول وبذلك يصدر القطن من مصر إلى المغازل الإنجليزية ويعود إليها قماشاً باهظ النفقات (١)

وثابت أن الاستعمار البريطاني في السودان قد اتبع نفس الطريق في عرقلة التقدم العلمي فإن الإحصاء الرسمي لحكومة السودان عام ١٩٤٧ يقرر أن مجموع الطلبة الذين يتلقون العلم في مختلف أنواع المعاهد ذكوراً وأنثاءً في مديريات شمال السودان الست لا يتجاوز ٨٤٨٢٦ ومن المعلوم أن عدد سكان هذه المديريات الست خمسة ملايين كما أن هذا الإحصاء نفسه يقرر أن مجموع هؤلاء الطلبة والطالبات في مديريات جنوب السودان الثلاث لا يتجاوز ١٨٨٣٥ . ومن المعروف أن عدد سكان هذه المديريات الثلاث يتراوح بين مليونين ونصف وثلاثة ملايين (٢) .

ومن الواضح أن عدد هؤلاء الطلبة من القلة بحيث يسم هذا الجزء من وادى النيل بطابع التأخر كما يسم الاستعمار بطابع الإمعان في عرقلة كل نهضة علمية .

(١) جوليت آدم - « إنجلترا في مصر » ص ١٨٤ (ترجمه على فهمي

كامل)

(٢) تقويم السودان عام ١٩٤٩ صحيفة ١٠٢ - ١٠٣

ويقتضينا الواجب في هذا البحث العلمي أن نعترف بأن الصيحات الحرة الأولى التي ارتفعت بمهاجمة الاستعمار البريطاني في الأقطار النيلية الثلاث التي ينبع منها النيل وهي أوغندا وكينيا وتنجانيقا كانت صيحات المفكرين الأحرار من الأوروبيين أنفسهم الذين أبى تفكيرهم الحر أن يسدلوا الستار على ما يرتكبه مواطنوهم من آثام في حق الملايين من إخواننا النيليين أهل هذه الأقطار .

فقد كانت الفكرة — قبل إلغاء الرقيق — في استعباد الأوروبيين للإفريقيين فكرة أساسها اختلاف دين هؤلاء المستعمرين عن دين الإفريقيين أكثر منها فكرة اختلاف لون هؤلاء المستعمرين عن لون الإفريقيين والدليل على ذلك أنه عند ما كان يعتنق الإفريقي المسيحية كان يمنح نظرياً حقه في استرداد حريته (١) .

ولذلك كان اتصال الإفريقي بالمستعمر الأوربي يختلف اختلافاً بيناً عن سابق اتصاله بقوم آخرين وفدوا إلى هذا الإفريقي من الشرق . فالعرب الذين حملوا الإسلام إلى إفريقيا وإن جاروا المسيحيين — قبل إلغاء الرقيق — في استعباده

إلا أن ديمقراطية الإسلام لا تقر أى تفريق بين أبناء الجنس البشرى بسبب اختلاف ألوانه .

وقد لوحظ أن الإفريقى على استعداد بل إنه تواق حتى يومنا هذا لأن يقدم خدماته إلى العربى^(١)

وتثبت الإحصائيات أن عدد الأوربيين بالنسبة لكل عشرة آلاف نيلى إفريقى لا يزيد عن ستة فى أوغندا وستة عشر فى تنجانيقا وخمسة وستين فى كينيا .

وقد ألفت وزارة المستعمرات البريطانية عام ١٩٣٦ لجنة لدراسة الحالة الاقتصادية فى الأقطار النيلية وفى غيرها ونشر تقرير هذه اللجنة فى عام ١٩٣٩ فقرر بأن إيراد الغالبية العظمى من شعوب المستعمرات أدنى بمراحل من الحد الأدنى المطلوب لكى يقوم بأود هذه الشعوب وأن أطعمة هذه الشعوب تنقصها البروتينات الحيوانية والكلسيوم والفسفور والحديد والصوديوم والفيتامينات المختلفة وأن الغذاء غير المناسب يعد السبب الرئيسى لارتفاع نسبة وفيات الأطفال التى تزيد عن مائتين فى الألف من المواليد ويصل فى بعض الأنحاء إلى ثلثائة فى الألف وهذا الرقم يوازي عشرة أضعاف وفيات الأطفال فى جنوب استراليا مثلا حيث لا

تزيد نسبة الوفيات عن ٣٠ - ٣٥ في الألف من المواليد وفي إنجلترا لا تزيد عن ٥٧ في الألف (١) .

ويقرر هؤلاء الباحثون البريطانيون في شئون الأقطار النيلية الثلاث التي ينبع منها النيل أن مستوى التعليم فيها من الانحطاط بحيث لا يمكن أن يقارن بما يناله « السيد » الأبيض من التعليم . ففي كينيا - كما قرر وزير المستعمرات في مايو سنة ١٩٣٩ - بلغ ما أنفق على كل طفل أوروبى فيها خلال عام ١٩٣٧ ثمانية عشر جنيهاً واثنى عشر شلناً بينما لم يزد ما أنفق على كل طفل نيلى من أهالى القطر عن أربعة عشر شلناً وثلاث بنسات وقد جنى عشرون في المائة من هذا المبلغ عن طريق فرض ضرائب مباشرة على هؤلاء الأهالى النيليين (٢)

وتعد كينيا بحق نقطة سوداء في الاستعمار البريطانى سواء من جهة مستوى الأجور أو أنظمة تسخير العمال بالقوة في العمل فالنيلى من أهالى كينيا الذى يعمل في مناجم الذهب لا يتقاضى في الشهر أكثر من إحدى عشر شلناً وستة عشر بنساً وكثيرون من هؤلاء النيليين التعساء يقضون نصف العام في مثل هذا العمل لكي يتمكنوا من كسب ما يكفي لدفع

A.G. Russell : Colour, Race and Empire, P. 32. (١)

(٢) المرجع السابق ص ٣٦

الضريبة المستحقة لحكومة الاستعمار وقدرها ثلاثون شلناً في العام . ولكي يوفرُوا إذا أمكن بعض المال الذى يسد النقص فى محصول الذى تغله قطعة الأرض الصغيرة التى يسمح للواحد منهم باستغلالها والتى تتراوح مساحتها بين ثلاثة وأربعة أفدنة . فإذا عجز النيلي فى كينيا عن مواجهة هذه التكاليف كان عليه أن يسخر أطفاله فى العمل وقد قضى القانون رقم ١٩٣ لسنة ١٩٣٧ بأن والد الطفل أو الولى الشرعى على الطفل الإفريقى يجوز له إذا تجاوزت سن هذا الطفل عن عشر سنوات بموافقة هذا الطفل ! أن يمرنه فى العمل الذى يؤديه الوالد أو الولى لمدة لا تتجاوز خمس سنوات وقد اقترح أن ترفع هذه السن إلى اثنتى عشر سنة فى الأعمال العادية وإلى أربعة عشر سنة فى الأعمال الصناعية فماذا يفعل هؤلاء الأطفال ؟ إنهم أولاً قد يرسلون إلى مكان يبعد خمسمائة ميل عن منازلهم حيث لا تفرض أية رقابة عليهم وحيث يتعرضون للآثام الخلقية والإدمان على الخمر . وقد ألفت حكومة كينيا لجنة أقرت بأن حوادث إدمان هؤلاء الأطفال على الشراب قد ثبتت ولكنها لم تر فيها ما يستحق أن توصف بأنها مشينة ! (١) .

وقد نشرت مجلة العمل الدولية فى مارس سنة ١٩٤١ أن

حوادث إضراب العمال في كينيا قد تكررت وأنهم تبينوا أن الإضراب سلاح فعال وأن العامل الإفريقي يتقدم بسرعة وأن من الواجب القيام بتحري أسباب شكواه تحرياً يستلزم الصبر والعطف ويستهدف وضع علاج حاسم وأساس للعلاقة بين أصحاب العمل والعمال ثم تساءلت المجلة هل يقدر لهذه السحابة التي لا تتجاوز قبضة اليد أن تتطور فتصبح زوبعة من زوابع خط الاستواء؟

وقد ظهرت في كينيا جريدة باسم « بارازون » اتسع انتشارها عام ١٩٤٢ بسبب دفاعها عن حقوق المواطنين ضد أطماع المستعمرين البيض .

ويذهب بعض الباحثين في شؤون الأقطار النيلية إلى أن كينيا — وهي أتعس مكان في القارة (١) — التي تبلغ مساحتها خمسمائة واثنين وثمانين ألفاً من الكيلومترات المربعة ويسكنها أربعة ملايين وخمسة وخمسين ألفاً من النيليين الإفريقيين لا يزيد عدد الأوروبيين فيها عن تسعة وعشرين ألفاً وخمسمائة وعدد العرب عن أربعة وعشرين ألفاً وعدد الهنود عن أربعة وأربعين ألفاً . وثلاث هؤلاء المهاجرين تقريباً يسكن في العاصمة « نيروبي » — هذا القطر النيلى كانت تحكمه قبل الاستعمار

البريطاني قبيلة « المازى » التي رأينا في الفصل السابق أن أفرادها يمتازون بمهارتهم الحربية وقوتهم الجسدية وأنهم من الرعاة الذين لا يهتمون بالزراعة. فلما بدأ الاستعمار البريطاني بشراء الحكومة البريطانية للشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية دفعوا المازى إلى أماكن خصصت لهم يطلق عليها في التعبير الإنجليزي اسم Reserves لا تكفيهم وأغتصب البيض أراضيهم وتبلغ مساحة الأراضي المغتصبة التي لا يحق لغير البيض استغلالها ستة عشر ألفاً وسبعمائة ميلاً مربعاً وبينما أصبحت كينيا موطناً ممتازاً للأوروبيين تحولت إلى لعنة على أهلها الأصليين الذين فرضت عليهم أنظمة تجعل منهم أنصاف عبيد^(١) ويحرم على هؤلاء النيليين أن يزرعوا نباتات تنافس ما يزرعه البيض كما أنهم مجردون من كافة المزايا السياسية أو حتى الأمل في هذه المزايا ومحرومون من أى تعليم فى . وهذه العقلية الاستعمارية عقلية فاشية بحتة وقد ثبت في قضية قتل حدثت في كينيا عام ١٩٤١ كان المجنى عليه فيها أحد الأوروبيين أنه كان يحتفظ بنشرات فاشية . وأنه كان يخطب في اجتماعات يعقدها الأوروبيون الفاشيون. وأنه كان يحمل بطاقة عضوية في الحزب الفاشى البريطانى الذى يتزعمه « موزلى » وأن بعض

أعضاء هذا الحزب قد قبض عليهم في هذه القضية^(١).

وقد حول اقتصاد زراعة البن في كينيا وتنجانيقا إلى اتجاه لا هدف له إلا تحقيق مصالح المستعمرين البيض ففي المدة السابقة على عام ١٩٢١ كان النيليون يملكون مائة وخمسة وعشرين ألف شجرة بن في منطقة كليمنجارو فطالب المستعمرون بتحريم الزراعة على أهالي البلاد^(٢) ولكن هذا الطلب لم يجب وفي عام ١٩٢٢ كان عدد زارعي البن ستمائة من النيليين وارتفع هذا العدد في عام ١٩٢٦ إلى ثمانية آلاف وكان عدد أشجار البن في عام ١٩٢٢ مائة وثمانين ألف شجرة فارتفع في عام ١٩٢٩ إلى مليونين ونصف مليون شجرة وعاد المستعمرون البيض إلى المطالبة بفرض رسوم رخصة على زراعة البن بواقع عشرة جنيهات على كل مزارع وهو مبلغ يزيد على متوسط إيراد الفرد النيلي في كينيا لكي يشلوا نشاط هؤلاء النيليين ويرغموهم على هجر هذه الزراعة ولكن هذه المحاولة فشلت هي الأخرى .

وقد بلغ من قسوة النظام المفروض لتحصيل الضرائب أن وضع تسعة عشر ألفاً من هؤلاء الإفريقيين النيليين في

(١) جريدة الديلي تلجراف مايو سنة ١٩٤١

(٢) Ormsby-Gore : Report on East Africa P. 152.

عام ١٩٣٧ بمعسكرات الاعتقال فى كينيا لا لسبب إلا لعجزهم عن دفع الضرائب . وقد أعلن مستر مالكوم ماكدونالد وزير المستعمرات البريطانى صراحة أثناء مناقشة تقرير وزارته عن عام ١٩٣٩ أنه إذا رأى رجل فى بعض المستعمرات يأكل قطعة من اللحم فإنه يثير الدهشة التى يثيرها الرجل الإنجليزى إذا رأى يأكل ورقة من أوراق البنكوت !

ولم تقتصر القسوة فى جباية الضرائب على كينيا وحدها بل تعدتها إلى تنجانيقا فقد بلغ عدد النيليين الذين سخرؤا فى العمل لسداد الضرائب المستحقة عليهم عن عام ١٩٣٦ واحد وثلاثين ألفاً وستمائة وخمسة (١)

وقد حرم المستعمرون البيض فى الأقطار النيلية الثلاث حق تأليف الجماعات السياسية — التى أحلها البيض لأنفسهم — على النيليين أهل البلاد . كما استغلوا ظروف الحرب العالمية الثانية للمعارضة فى أى تعديل إصلاحى فى التشريع الخاص بنقابات العمال وقد اعتبرت « جمعية كيكويو المركزية » وجمعيتان أخريان من جمعيات العمال هيئات خطيرة ومخلّة بأمن المستعمرة (٢)

A.G. — Russell, — Colour, Race and Empire P. 110 (١)

Leys : Colour. Bar in East Africa P. 140 (٢)

وفي المجلس التشريعي لكينيا يبلغ عدد ممثلي المستعمرين الأوروبيين الذين رأينا أن مجموعهم لا يتجاوز ثلاثين ألفاً بما فيهم النساء والأطفال أحد عشر نائباً وعد ممثلي الهنود الذين رأينا أن عددهم لا يتجاوز أربعة وأربعين ألفاً — خمسة نواب وممثلي العرب الذين رأينا أن عددهم لا يتجاوز أربعة وعشرين ألفاً — نائب عربي بينما أهل البلاد الذين يبلغ عددهم أربعة ملايين وخمسة وخمسين ألفاً لا يمثلهم إلا نائبان معينان بواسطة سلطات الاستعمار !

هذه صفحة من صفحات الاستعمار الأوربي في وادي النيل وقد تبينا في باب « الشعوب النيلية » كيف أن شعوب هذه الأقطار النيلية تكون وحدة « جنسية » لا انفصام بينها كما تكاد تكون وحدة لغوية . وتبيننا أيضاً أن الاستعمار الأوربي قد فرض على هذه الأقطار حدوداً مفتعلة سياسياً لا يبررها أي اعتبار جغرافي أو تاريخي أو « جنسي » .

وقد تبين المستعمرون الأوروبيون أن الفصل بين هذه الأقطار النيلية إسراف في التعسف ففكرت الحكومة البريطانية عام ١٩٢٩ في إنشاء « اتحاد » بين أقطار منابع النيل الثلاثة كينيا المستعمرة . وتنجانيقا التي تحت الوصاية بانتداب من عصبة الأمم . وأوغندا التي تحت الحماية . ولكن اللجنة التي ندبتها

عصبة الأمم عام ١٩٣٣ للنظر في ذلك رفضت الفكرة على أساس أن انتداب بريطانيا لإدارة تنجانيقا لم يكن قد انتهى بعد .

وعادت الفكرة إلى الوجود بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٥ باجماع ممثلي الأوروبيين في كينيا وأوغندا ولكن الفكرة رفضها وكيل وزارة المستعمرات البريطانية لنفس السبب .

وفي عام ١٩٤٥ وضعت الحكومة البريطانية مشروع قانون قبله الأوروبيون المهاجرون إلى الأقطار النيلية الثلاثة مع بعض تحفظات ورفضه الهنود فأعيد تقديمه عام ١٩٤٧ وصدر رغم معارضة الهنود وهذا القانون يحقق نوعاً من « الاتحاد » بين الأقطار النيلية إذ أنه أنشأ ثلاث هيئات تتقاسم السلطات التنفيذية والتشريعية .

فالهيئة الأولى وهي « اللجنة العليا لشرق إفريقيا » تضم حكام الأقطار الثلاثة . كينيا وتنجانيقا وأوغندا ورئاستها — بنص القانون — للأول .

والهيئة الثانية وهي « الهيئة التنفيذية لشرق إفريقيا » تضم رئيس اللجنة السابقة ومديرى المالية والمواصلات والبريد وسكرتير الشؤون الاقتصادية والمستشار القانونى لكل من الأقطار الثلاثة ورئيس الجمعية المركزية وهي الهيئة الثالثة .

والهيئة الثالثة وهي « الجمعية المركزية لشرق إفريقيا » التي تتيح لأهل الأقطار الثلاثة الاشتراك في إدارة مصالحها .

وهي مكونة من بعض أعضاء الهيئة الثانية ممثلين للإدارة المركزية ومن أعضاء غير موظفين منتخبين بواسطة المجالس التشريعية للأقطار الثلاثة على أساس أربعة مندوبين عن كل قطر ويمثل الأوربيين في هذه الهيئة اثنان ويمثل الهنود مندوب واحد كما يمثل جميع الإفريقيين أهل البلاد مندوب واحد مع أننا رأينا أن مجموع عدد هؤلاء الإفريقيين في هذه الأقطار الثلاثة هو ثلاثة عشر مليوناً وستمائة ألف بينما عدد الهنود في الأقطار الثلاثة لا يزيد عن مائة وتسعة وستين ألفاً وبينما عدد الأوربيين لا يزيد عن ثلاثة وخمسين ألفاً !

ولقد اهتم بعض المفكرين المصريين بمصير هؤلاء الملايين من إخواننا الإفريقيين النيليين الذين يعيشون حول منابع النيل فاقترح بعضهم « إنشاء اتحاد نيلي » يجمع مصر والسودان وأوغندا^(١) وقد يلاحظ على هذه الفكرة اقتصرها على ضم أوغندا إلى هذا الاتحاد النيل مع أن وادي النيل يشمل كما رأينا القطرين الآخرين وهما تنجانيقا وكنيا .

ودعا البعض الآخر إلى إدماج مبدأ « إفريقيا للإفريقيين »

كقاعدة من قواعد القانون الدولى العام التى لا يجوز الخروج عليها أو المساس بها كما سبق أن أدمجت قاعدة «أمريكا للأمريكيين» التى نادى «مونرو» بادماجها ضمن قواعد ذلك القانون^(١)

وليس هذا البحث مجالا للأفاضة فى تفاصيل الشكل الذى تتخذه الجهود التى تبذل لتحرير الأقطار النيلية التى لا تزال ترسف فى أغلال هذا الاستعمار من ذل هذا الاستعمار ويكفى أن نقرر فى ختام هذا البحث أن الاجتماع قد انعقد بين العلماء المحايدىن الذين توفروا على دراسة شؤون هذه الأقطار على أن مصر دون غيرها هى الدولة التى يمكنها إدخال النظم العصرية فى الحكم إلى الأقطار الواقعة على جانبي النيل . فقد قرر سير صمويل بيكر الإنجليزى « أن الحضارة لم تصل إلى قلب إفريقيا إلا بعد أن أمتدت الحدود المصرية إلى خط الاستواء »^(٢)

وقرر هيلد براند الألمانى فى خطاب إلى رئيس الجمعية الجغرافية المصرية فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٧٥ « لا توجد

(١) محمود كامل - « العمل لمصر » سنة ١٩٤٥ ص ١٥٥ ، ١٥٦

(٢) صمويل بيكر - كتاب الإسماعيلية ص ٤١٢

أمة أصلح - في اعتقادي - من مصر لرفع مستوى المدنية
في إفريقيا» (١)

وقرر شيليه لونج الأمريكي « إنني أكرر أن مصر
وحدها دون غيرها هي التي يتوفر لديها شعب يصلح
صلاحية خاصة لخدمة هذه الأقطار الإفريقية وإلى هذا
الشعب - لا إلى البعثات الأجنبية - يجب أن يتجه كل
محب للجنس البشرى . وإذا شئت العناية الإلهية أن تسعد
أقاليم إفريقيا الوسطى بوسائل إنسانية فإن هذا الهدف لا يمكن
أن يتحقق إلا بواسطة الشعب المصري» (٢)

وقرر الفونس جوي الفرنسي « أن استقلال مصر لا
يتحقق إلا بشرط أن تمتد وحدتها مع الأقاليم الجنوبية إلى
منابع النيل فإن ترك هذه المنابع بين يدي سلطة أجنبية إنما
هو وسيلة من وسائل الضغط الفعال على سياسة مصر الخاجية» (٣)
إن مصر لم تبد في تاريخها قط كدولة استعمارية . وليس
في طبيعة أهلها أن يكونوا مستعمرين . بل أنها وقفت في المحافل
الدولية دائماً إلى جانب كل شعب أو مجموعة شعبية تتوق

(١) الدكتور محمد صبرى - مصر في إفريقيا الشرقية ص ٧٦

(٢) Chaillé Long : L'Afrique Centrale

(٣) Alphonse Gouilly : L'Islam devant le monde moderne P. 89

إلى التخلص من نير الاستعمار . وكل ما يرمى إليه هذا البحث
هو لفت أنظار النيليين في شمال وادي النيل ووسطه أى في
مصر والسودان إلى ما يعانيه إخوانهم في جنوبه حول منابع
النيل لكي يتعاون الجميع على تحرير أهل هذه المنابع وعلى أن
يتترك لهم كامل الحق في اختيار شكل الحكم الذي يفضلونه .



اقرأ

السلسلة الشهيرة الوحيدة التي
تعمل منذ تسع سنوات على تبسيط
الطالعة المتعة النافعة وإدخالها
إلى كل منزل في كل مدينة وقريّة -
وعنوانها خير ما يوجه إلى الأفراد
والجماعات ، بل هو خير ما يوجه
إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن .

فهي :

- نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة في كل منزل .
- أشبه بجامعة شعبية بما تقدمه من مختلف ألوان الثقافة .
- جديرة بمطالعة الشباب والضيوف الذين يسعون إلى متابعة العلم والمعرفة .

من النسخة ٥ قروش • الاشتراك السنوي ٦٠ قرشاً

تصدرها

دار المعارف بمصر

وهي الدار التي قضت ٦٠ عاماً
في خدمة الكتاب العربي وتعميم نشره

المركز الرئيسي
٥ شارع ميسري بالقاهرة



مصنع من ثقافة وضياء - كل قطر يعشقه إلى بشرائه
« على التجارة نزلت »

سنة ١٩٦٩ م

روضة الطفل



- ١ أرنبو والكنز
- ٢ كنكت المدهش
- ٣ عيد ميلاد فلة
- ٤ فرفر والجرس
- ٥ ذيل الفأر
- ٦ البطة السوداء
- ٧ انتصار فيروزة
- ٨ حسن والذئب
- ٩ حبة القمح
- ١٠ زحلف الشجاع

أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجد
الطفل فيها قصصاً مفيدة مزيّنة بالصور
المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

تصدرها
دار المعارف بمصر

بمعاونة السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب

نظرة حديثاً

روبن هود

أسطورة وطنية تشوق الصغار وتعجب الكبار بحوادثها
العجيبة ومراميها النبيلة وتستحوذ على الألباب بما فيها من
آيات البطولة والشجاعة والفروسية تحلت بها نفوس أبية
حرة تلاقى الضر ولا تلاقى الهوان .

الثنى ١٠ قروش

« روبن هود » هو الكتاب التاسع من مجموعة

أفلاذ

المجموعة التي توفر للشباب أبلغ القصص
تأليفاً وترجمة واقتباساً وتقدمه إليه في أجمل حلة

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

ابتداء من أول يناير سنة ١٩٥٢

تصدر

مجلة الأولاد في جميع البلاد

سندباد

المجلة الأولى من نوعها . ستكون بمادتها ورسومها
وتنسيقها وإخراجها خير ما يودع بين أيدي الناشئة
فيطالعها بشغف وفائدة جميع الأولاد بنين وبنات .

احجزوا منذ الآن

النسخ اللازمة لأولادكم وتلاميذكم

رئيس التحرير الأستاذ محمد سعيد العريان

تصدر عن دار المعارف بمصر

جنرال إلكتريك

U.S.A.



تلاعات منزلية وتجارية
أجهزة تكييف الهواء
أجهزة تبريد
أعمال الإضاءة المنية
مبردات المياه
أدوات كهربائية منزلية

اشترى الأفضل..

٢٠٧٠٠٠٠٠
شعيرة جنرال إلكتريك تعمل
بنجاح منذ عشر سنوات تقريبا

جنرال إلكتريك



الموزعون المعتمدون لقطر المصري

شركة إيترن للكهرباء

٣٢ شارع عبد المخلق ثروت باشا ٧٨٠٦٠ بالقاهرة

وتابع لدى وكيلنا جميع أجهزة القطر

SPMO

مشروب الضيافة



DT
108.6
-K3
1951
c.2

معبأة بواسطة شركة : د. نهال المصرية لنفعية الزمبابوات ش.م.م